امسح بالجوال

أُمهات ربين عظماء

اعتنى بجمعه

أبو محمد يوسف بن زبن الله العطير

يُهدى ولا يُباع

أمهات
ربين عظماء

ح يوسف بن زبن الله بن محمد العطير، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العطير، يوسف بن زبن الله بن محمد

أمهات ربين عظماء. / يوسف زبن الله بن محمد العطير، - المدينة المنورة، ١٤٤٣هـ

٩٦ ص؛ ١٧ سم/ ٢٤ سم

ردمك: ٧- ٠٥١٠ - ٠٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ – المرأة في الإسلام- تراجم ٢- المرأة- تراجم أ. العنوان

ديوي ٧٢، ٩٢٠ ٦٩٨٠/ ١٤٤٣

رقم الإيداع: ٦٩٨٠/ ١٤٤٣

ردمك: ٧- ٠٥١٠ - ٠٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ

حقوق الطبع لكل مسلم

يُهدى ولا يُباع

أمهات ربين عظماء

اعتنى بجمعه

أبو محمد يوسف بن زين الله العطير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن خير ما يقدم به المرء المسلم لأهل الإسلام: علم ينفعهم الله به، فيحببهم إلىٰ الله، ولن يكون هذا إلا عندما يعلم الإنسان مراضي الله عز وجل، ويعلم مساخطه، من خلال معرفة شرعه وأحكامه.

والحياة في زمننا الحاضر تعج بالوسائل التي فتنت الناس في كل نواحي حياتهم، ويسعىٰ مروجو فتن الشبهات والشهوات إلىٰ نشرها داخل بيوت المسلمين وخارجها، والدعوة إليها في كل مكان.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**». قال: ثم خط عن يمينه، وشماله، ثم قال: «**هذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا

﴿ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1] [الأنعام:١٥٣].

وعن النواس بن سمعان الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وعلىٰ باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي علىٰ رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»[2].

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نَعم، وفيه دَخن». قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي، تَعرف منهم وتُنكر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة علىٰ أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت: يا رسول الله، صِفهم لنا، قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا». قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تَلزم جماعةَ المسلمين وإمامهم». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفِرق كلها، ولو أن تَعض بأصل شجرة، حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك»[3].

فالذي يقرأ هذا الحديث؛ يدرك أن الذي يسلم من ذلك، هو من وفقه الله للاعتصام بالكتاب والسنة علىٰ المنهج السديد.

وإن سلامة الأمة أو عطبها يكون مما تخرجه البيوت، ومما ينشأ عليه

(١) أخرجه أحمد (٤٤٣٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٤٧).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٩).
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (٤٨١٢).

الناشئة، والبيوت أساسها وعمادها: الأم التي تصنع الرجال، وبصنعها الصالح يكون صلاح المجتمع، فالشاب الصالح عليه عماد الأمة بعد الله، والفتاة الصالحة التي تربت علىٰ الفضيلة والعفاف وسير سلفها الصالح من الأمهات الصالحات التي ربين عظماء، ستبني بيتًا آخر، تصنع فيه ما يصنع رفعة الأمة وعزها.

وعظماء الأمة ورجالها الأوفياء صنعتهم أمهات صالحات، آثرن الباقي علىٰ الفاني، وضحين بحياتهن في سبيل تربية أبنائهم التربية الصالحة، وتنشئة من تحتهن علىٰ الحياء، والحشمة، والصدق، والكرم، ومحاسن الأخلاق ومكارمها، وجعلن بيوتهن عامرات بذكر الله من الآيات والحكمة، وحببن دين الله إلىٰ ناشئتهن من بنين وبنات، فتمثلوا آداب الإسلام وأخلاقه في سلوكهم وحياتهم الدنيوية، فلقين الله وهن أمينات صادقات، عبدن الله بقيامهن علىٰ ما ينفع ويرفع الله به الأمة.

والأم أقرب الناس لقلوب أبنائها، وأحرص الناس علىٰ منفعتهم، وهي لو جعلت القضية قضيتها، والمهمة مهمتها؛ لخرج لنا جيل نفاخر به العالمين، فالأم مدرسة حقيقية، وصدق الشاعر إذ يقول:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألىٰ ... شغلت مآثرهم مدىٰ الآفاق

وكما جسد ذلك بقوله:

ولم أر للخلائق من محل ... يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسنًا ... بأخلاق النساء الوالدات

إن المرأة -أمًّا كانت أو أختًا- هي النواة الأولىٰ لقيام المجتمع، فلها أكبر الدور في تربية وتنشئة الأبناء، ومساعدة الزوج في الأعمال، ولعل أروع مثال علىٰ ذلك: أمّنا خديجة، رضي الله عنها وأرضاها، كانت امرأة عظيمة؛ وعظمتها كانت

حاضرة في أدوارها كلها، فكانت تلك التي تهتم بتجارتها ﵂، ثم كانت نِعم السند لرسول الله ﷺ، وكانت مهتمة ببيتها وأولادها، فنجد أنها ورثت كل بنت من بناتها خصلة من خصالها الحميدة الطيبة.

ويرجع كثير من العلماء السبب في تماسك المجتمع الإسلامي، وانتصاره علىٰ الغزاة في مراحل الضعف التاريخي التي مر بها العالم الإسلامي إلىٰ المرأة المسلمة، وتمسكها بدينها وعقيدتها الإسلامية، آثرت من كان لها ولد، أن يكون من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيا، ولما أغفلنا دور المرأة وتناسيناه، خرج جيل مهتز الثقة بدينه وعقيدته، يميل مع كل مائل، وينعق مع كل ناعق، ويستمد آدابه وأخلاقه وسلوكه من أعداء ملته، وسبب ذلك يرجع إلىٰ عدم فهمه لدينه، ومعرفته لأخلاق أمته ومجدها وعزها، فتأثر بأخلاقهم، وظن أنهم علىٰ شيء وهم ليسوا علىٰ شيء، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم].

ولعل في التاريخ نماذج مشرقة من أمهات كُنَّ ذلك النبع المعطاء، فكان أولادهن ثمار غرسهن.

ومن خلال هذه الصفحات، نستعرض بعضًا من هذه النماذج الطيبة، مع إظهار الأساس الذي جعل هؤلاء الأئمة عظماء بمن وراءهم من أمهات، لعل الله يجعل فيها سببًا في رفع همم أمهات عصرنا وبناتهن، فالخير باقٍ في أمة محمد ﷺ ما بقيت وعملت بمقتضىٰ الدين الصحيح.

والله الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الدّاعي لكم بالخير

أبو محمد

(١)
أم أنس بن مالك
رضي الله عنهما

هي: مليكة بنت ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتلقب بالغميصاء، أو الرميصاء، وشهرتها: أم سليم[١].

ولو كان لأم أن تفخر علىٰ ابنها بعطية، وأن تفخر بابنها علىٰ أمة الإسلام، وأن تفخر علىٰ أمة الإسلام بحظ بيتها من رسول الله ﷺ؛ لكان ذلك - مجتمعًا - من نصيب أم أنس بن مالك، رضي الله عنها وعنه.

فقد قدمت أم أنس لولدها أنس وللأمة خير هدية، حين أخدمته رسول الله ﷺ، فكانت بذلك سببًا من أسباب حفظ الله للسنة النبوية، ومن ثم حفظ الدين، فقد استطاع أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال خدمته للنبي ﷺ أن ينقل لنا أكثر من ألفي حديث، بل نقل لنا من أحواله وأقواله وأفعاله ﷺ ما لم ينقله غيره؛ لموضعه ذاك؛ إذ أتاح له أن يطلع علىٰ ما لم يطلع عليه أحد سواه.

لقد كانت فكرة الخدمة تلك من أفكار أم أنس، وسعت إلىٰ رسول الله ﷺ رغبة في تنفيذها، وأجاب النبي الكريم طلبها وحقق رغبتها.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن ثمان سنين، فأخذت أمي بيدي، فانطلقت بي إليه، فقالت: يا رسول الله، لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا وقد أتحفك بتحفة، وإني لا أقدر علىٰ ما أتحفك به إلا ابني هذا، فخذه، فليخدمك ما بدَا لك. قال: فخدمته عشر سنين، فما ضربني، ولا سبني، ولا عبس في وجهي[٢].

---

(١) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة»، لابن حجر (٨/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ (٣٦٢٤)، وغيره.

ونِعم التحفة تحفة أم أنس، ونعم الهمة همتها، إنها لهمة عالية ورغبة سامية من تلك الأم الكريمة، حين أرادت أن يحظىٰ ابنها بهذا الشرف، ويدوم له علىٰ طول الزمان فخره وعزه، وقد كان ذلك، فقد ارتبط اسم أنس علىٰ مر القرون باسم رسول الله ﷺ، وبلقب: خادم رسول الله ﷺ، ذلك اللقب الذي كان أنس يتلقب به، ويفتخر به، فكثيرًا ما كان يقول: إني لأرجو أن ألقىٰ رسول الله ﷺ في يوم القيامة، فأقول له: يا رسول الله، هذا خويدمك أنس[١].

قامت أم أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا علىٰ تربية ابنها والعناية بشأنه، وقد حملت أمانتها بقوة، ومضت بها في عزيمة عهدت عنها من أول يوم دخلت فيه دين الإسلام، فقد كانت تحت مالك بن النضر في الجاهلية، فولدت له أنس بن مالك، فلما بعث الله نبيه ﷺ بالإسلام، كانت أم سليم ممن سارع إليه، فأسلمت مع قومها، ودعت زوجها مالكًا إلىٰ الدخول في دين الإسلام، فأبىٰ، وغضب عليها، وهجرها، ثم إنه خرج إلىٰ الشام فهلك هناك[٢]، فلم يزحزحها ذلك عن موقفها، والرجل يومئذ عمود البيت وقوامه وأساسه، فثباتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يدل علىٰ إيمان راسخ، وجنان ثابت، وعزم قوي، وهمة عالية.

كان علىٰ أم سليم أن تكمل المسيرة وحدها في تربية وليدها، وقد وفت بذلك وكفت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومَن لهذا المقام مثلها، وهي ذات العقل الراجح والرأي الناصح؟ وموقفها مع زوجها أبي طلحة يوم وفاة ولدهما يدل علىٰ ذلك، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان ابنٌ لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقُبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم -وهي أم الصبي-: هو أسكن ما كان، فقربت إليه العشاء، فتعشىٰ، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروُا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: «**أعرستم الليلة؟**» قال: نعم، قال: «**اللهم بارك لهما**»، فولدت غلامًا، فقال لي أبو طلحة:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٢٢)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم».
(٢) انظر: «الإصابة» (٨/ ٢٢٧).

احمله، حتىٰ تأتي به النبي ﷺ، وبعث معه بتمرات، فقال: «أمعه شيء؟» قال: نعم، تمرات، فأخذها النبي ﷺ، فمضغها، ثم أخذها مِن فيه، فجعلها في في الصبي، ثم حنَّكه، وسماه: عبد الله.

وفي رواية للبخاري: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد، كلهم قد قرأوا القرآن، يعني من أولاد عبد الله المولود(١).

تلك امرأة صابرة، مبارك صبرها، وهي -أيضًا- ذات حكمة بالغة، فقد ورد في بعض الروايات الصحيحة أن أم أنس رضي الله عنها علمته القراءة والكتابة وهو دون عشر سنين، ولم تأت به النبي ﷺ حتىٰ كان يجيدهما.

روىٰ أحمد في مسنده عن أنس قال: أخذت أم سليم بيدي مَقدَم النبي ﷺ المدينة، فأتت بي رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هذا ابني، وهو غلام كاتب، قال: فخدمته تسع سنين، فما قال لي لشيء قط صنعته: أسأت، أو: بئسما صنعت(٢).

ومَن عَرَف حال العرب من حيث القراءة والكتابة في ذلك الزمان العتيق أدرك أي عمل عظيم قامت به تلك الأم العظيمة لأجل البلوغ بولدها منازل العظماء، فلله درها!

ومن عظيم منة أم سليم علىٰ ابنها أنس -وهو شاهد علىٰ وفرة فطنتها كذلك-: أنها أبت الزواج بعد والده، مشترطة لوقوع ذلك أن يكبر أنس، ويجلس في المجالس، ويحدث الرجال، فكانت تقول: لا أتزوج حتىٰ يبلغ أنس، ويجلس في المجالس، وكان أنس يقول عن ذلك: جزىٰ الله أمي عني خيرًا، لقد أحسنت ولايتي(٣).

تحقق شرط أم أنس في ولدها، وبلغ، وجلس مجلس الرجال، وتكلم،

(١) أخرجه البخاري (١٣٠١)، ومسلم (٢١٤٤).
(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٧٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين».
(٣) انظر: «طبقات ابن سعد» (١٠/ ٣٩٦).

وجاءها الخُطَّاب من كل ناحية، وكان فيمن أتاها الصحابي الجليل أبو طلحة زيد ابن سهل الأنصاري[(١)]، فتزوجت به أم سليم، وقد أخلف الله عليها به، وكان زواجهما آية من آيات الله تعالىٰ، فإنه حين ذهب لخطبتها، وكان إذ ذاك كافرًا، قالت له أم سليم صاحبة العقل الكبير: يا أبا طلحة، ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا مسلمة، لا تحل لي، فإن تسلم فذلك مهري، فأسلم، فكان ذلك مهرَها، قال ثابت البناني: فما سمعنا بمهر كان قط أكرم من مهر أم سليم: الإسلام[(٢)]، وبذلك كان مهرها أعظم مهر عرف في الأمة كلها!

ومن جميل ما ورد من روايات في أمر زواجهما؛ أن أبا طلحة لما خطبها قالت له: يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض؟ قال: بلىٰ، قالت: أفلا تستحي، تعبد شجرة؟ إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقًا غيره، قال: حتىٰ أنظر في أمري، فذهب ثم جاء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقالت: يا أنس زوج أبا طلحة، فزوجها[(٣)].

كان مهرها: الإسلام، وهذا مهر بعيد أن يقع مثله في التاريخ، ويندر أن يتكرر.

منَّ الله علىٰ أبي طلحة، فكان بعد إسلامه وزواجه من أم سليم من المقدمين في قومه المسلمين من الأنصار في المدينة، فكان أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وقد كان ﵁ من الشجعان والرماة المعدودين في الجاهلية والإسلام.

لقد شملته بركة أم سليم، تلك المرأة والأم المباركة.

تلكم أم أنس، وذاكم عقلها، فمَن مِن النساء تجاريها في ذلك أو تحاول لأعمالها تشبيها؟

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٧).
(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٠٤١٧)، والطيالسي في مسنده (٢٥٩٠).
(٣) انظر: «حلية الأولياء» (٢/ ٦٠).

وقد كان أنس بين هذين العظيمين –أم سليم وزوجها أبي طلحة–، ولو قدر له أن يتربىٰ بينهما وفي بيتهما لكان صاحب مقام عظيم، ولتبوأ مكانة مرموقة في الإسلام، لكن ذلك المقام وتلك المكانة ما كانا أبدًا ليصلا به إلىٰ ما وصله بخدمته رسول الله ﷺ وتربيته علىٰ يدي مربي الناس: محمد ﷺ!

يقول أنس: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعتُه: لم صنعتَه، ولا لشيء تركته: لم تركتَه، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلقا، ولا مسست خزًّا قط ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا قط ولا عطرًا كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ[(١)].

علىٰ مثل هذه القِيم العظمىٰ تربىٰ أنس، وبها تخرَّج في مدرسة النبوة.

ومجال الحديث عن أنس وعن أثر تربية النبي ﷺ في حياته مجال خصب واسع، تُستخرَج منه للأجيال دررٌ ولآلئ.

أسرَّ النبي ﷺ يومًا إلىٰ خادمه أنس بِسرٍّ، ثم أوصاه، فقال له: **«لا تخبر بِسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا»**. فخرج أنس إلىٰ الطريق، وهو يومئذ صبي يلهو كما يلهو الصبيان، ويستهويه ما يستهويهم، فوجد الصبيان يلعبون، فقعد يلعب معهم، ثم إن النبي ﷺ خرج في بعض حاجته، فوجد أنسًا يلعب، فجاء النبي ﷺ ، فسلم علىٰ الصبيان، ثم أخذ بأذن أنس يداعبها، وقال: **«أي لكع، ألم أبعثك في حاجة؟»**. فقال أنس معتذرًا: نسيت، فقال له ﷺ: **«الآن فاذهب»**.

وكأن أنسا عرج في طريقه علىٰ بيتهم لحاجة، فسألته أمه أم سليم: فيم كنتَ؟ فقال لها: كنت في حاجة رسول الله ﷺ، فقالت –تختبره–: ما حاجته؟ فقال أنس: إنها سر! قالت أم سليم: احفظ سر رسول الله ﷺ، ولا تخبر به أحدًا.

كان أنس رضي الله عنه يحدث بهذا الحديث تلميذه الوفي: ثابت البناني، وأنس حينئذ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣٠).

ابن تسعين سنة – وقد مر علىٰ الحادثة قريبًا من ثمانين سنة – فقال له: واللهِ لو حدثت به أحدا لحدثتك يا ثابت، وإني ما أخبرت به أحدًا بعد رسول الله ﷺ، ولقد سألتني أمي أم سليم، فما أخبرتها به[١].

هذا موقف واحد من مواقف كثيرة كانت بين النبي ﷺ وخادمه أنس، وجميعها تنضح عطرًا وترشح عنبرًا.

ويسترعي الانتباه في هذا الموقف: حسن تربية النبي ﷺ في مسلكها، وأثرها، وعظم دور أم أنس رضي الله عنها في دعم هذه التربية وتثبيتها وتشجيعها، وطريقتها في ذلك طريقة حسنة، وهي الحوار، ونِعِمَّا هي:

أبطأ ولدها في الحضور إلىٰ البيت، فسألته: أين كنت؟ فقال: في حاجة رسول الله! فاختبرته: وما حاجته؟ فأجابها: إنها سر! فأوصته: احفظ سر رسول الله ﷺ، وزادته: ولا تخبر به أحدًا.

نِعم الأدب الذي يأتي حوارًا، فهو طريقة منتجة وقوية، ومن جرب ذلك عرف، فلله درها من مربية!

لقد صار أنس كله وكل ما قدمه لهذا الدين في ميزان أمه، فنعم العطاء الذي أعطته له، ونعم العمل الذي قدماه لهذا الدين!

لقد كانت أم أنس سببًا في دعاء رسول الله ﷺ لابنها أكثر من مرة.

روىٰ مسلم عن أنس، قال: دخل النبي ﷺ علينا، وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام، خالتي، فقالت أمي: يا رسول الله، خويدمك، ادع الله له، قال فدعَا لي بكل خير، وكان في آخر ما دعا لي به أن قال: **«اللهم أكثِر مالَه وولَدَه، وبارك له فيه»**[٢].

وقد استجاب الله سبحانه دعاء نبيه، فكان أنس أكثر الأنصار مالاً، وأوفرهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣١)، وانظر شرح الحافظ علىٰ الحديث في «فتح الباري» (١١/ ٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨١).

ذرية، حتىٰ إنه رأىٰ من أولاده وحفدته ما يزيد علىٰ المائة، وقد بارك الله له في عمره، حتىٰ عاش قرنًا كاملاً، وفوقه ثلاث سنوات(١).

قال أنس -يشير إلىٰ بركة دعاء النبي ﷺ له-: فقد رأيت اثنتين، وأنا أنتظر الثالثة، واللهِ إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون علىٰ نحو من مئة.

وفي رواية: وإن كرْمي -يعني بستان العنب- ليحمل في السنة مرتين، وإن ولدي لصلبي مائة وستة أولاد(٢).

ونبينا ﷺ هو من كان كناه أبا حمزة.

كانت الرميصاء -أم أنس- فقيهة، ومن فقهها قولها رضي الله عنها لما سمعت بمقتل عثمان رضي الله عنه: رحمه الله، أما إنه لم يحلبوا بعده إلا دمًا(٣).

وكانت عالمة، أخذت عن النبي ﷺ كثيرًا من الأحاديث، وسألته في كثير من الأحكام، ولذا كانت بعد ذلك تُسأل، فتَعرف، وتُستفتىٰ، فتفتي بما سمعت من النبي ﷺ.

وكانت رضي الله عنها عاملة بما تعلم، وفية للعلم الذي تحمله، فقد وفت بما عاهدت عليه رسول الله ﷺ مع النساء بما أخذ عليهن من عهد.

قالت أم عطية رضي الله عنها: «أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منا غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرىٰ»(٤). فبدأت بأم أنس رضي الله عنها، وهو فضل وأي فضل!

وكانت أم سليم تجل النبي ﷺ وتوقره، وتعرف فضله وتقدره، وتحرص علىٰ بركته واقتفاء أثره. فعن أنس أن أم سليم كانت تبسط للنبي ﷺ نطعا، فيقيل عندها علىٰ ذلك النطع، قال: فإذا نام النبي ﷺ؛ أخذت من عرقه وشعره، فجمعته في

(١) انظر: «صور من حياة الصحابة» (١٦).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٨/ ٣٠١).
(٣) انظر: «البداية والنهاية» (٧/ ١٩٥).
(٤) أخرجه البخاري (١٢٤٤).

قارورة، ثم جمعته في سك - نوع من الطيب يركب من مسك ورامك-، قال ثمامة ابن عبد الله -حفيد أنس-: فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة أوصىٰ إليَّ أن يجعل في حنوطه من ذلك السك، قال: فجعل في حنوطه(١).

وعن أنس بن مالك أيضًا رضي الله عنه قال: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم، فقالَ عندنا، فعرق، وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أم سليم، ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقك، نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب(٢).

لقد أرادت أم سليم أن ينال بيتها -كما نال ابنها- من بركة النبي صلى الله عليه وسلم، فكان لها أيضًا ما تمنت؛ إذ لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يدخل بيتًا بعد بيوت أزواجه غير بيت أم سليم وأبي طلحة رضي الله عنهما(٣).

وكانت السيدة الكريمة إذا زارهم النبي صلى الله عليه وسلم، تتحفه بالشيء تصنعه له.

لقد تبوأ أنس رضي الله عنه مرتبة علية في الأمة بمحفوظاته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يأتي في المرتبة الثالثة بعد ابن عمر وأبي هريرة -رضي الله عنهم- في كثرة الأحاديث التي رواها وحفظها من رسول الله، ويبلغ مسنده (٢٢٨٦) حديثا، اتفق له البخاري ومسلم علىٰ (١٨٠) حديثا، وانفرد البخاري بـ(٨٠)، ومسلم بـ(٩٠) حديثا(٤).

قال السيوطي في ألفية الحديث(٥):

والمكثرون في رواية الأثر	أبو هريرة يليه ابن عمر
وأنس والبحر كالخدري	وجابر وزوجة النبي

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٩).

(٤) انظر: «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» (١/ ٩٨)، وانظر في سيرة أنس رضي الله عنه: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٩٥).

(٥) انظر: «ألفية الحديث» للسيوطي، وشرحها لمحيي الدين عبد الحميد (٢/ ٢٢).

كان النبي ﷺ قد قدِم إلىٰ المدينة وأنس ابن ثمان سنين، ومات وهو ابن عشرين سنة، فقضىٰ معه سنوات، يصبح ويمسي مع رسول الله، يحيا معه، ويخدمه، ويطلع علىٰ غالب شئونه.

هذا بعض عطاء أنس لأمتنا، وهو عطاء أمِّه لنا من قبله، وعطاؤها للإسلام وأهله من خلال ولدها، فانظروا كيف تستطيع أم أن تقدم أعظم الخدمات الشرعية والتربوية والحضارية من خلال تربية أبنائها؟

ومن مآثر تلك الأم العظيمة إلىٰ جانب التربية التي جلينا بعض جوانبها: شجاعتها وإقدامها في المشاهد المختلفة مع رسول الله ﷺ، فقد كانت تخرج فيمن يخرج من النساء، ولها في ذلك قصص كثيرة، منها ما أخرجه مسلم عن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، اقتُل مَن بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أم سليم، إن الله قد كفىٰ وأحسن**»[(١)].

عاشت الرميصاء أيام النبي ﷺ، فوفت بما عاهدته عليه، وتوفي عنها وهو عنها راض، بل بشرها بالجنة قبل أن يمضي، كما في البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيت قصرًا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله، فأنظر إليه، فذكرت غيرتك**». فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله، أعليك أغار؟[(٢)].

وعن النبي ﷺ قال: «**دخلتُ الجنة، فسمعت خشفة** – يعني صوت حركة

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٦)، ومسلم (٢٣٩٤).

المشي – **فقلت: من هذا؟ قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك»**[١].

وعاشت رَضِّيَاللَّهُعَنهَا في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين، ثم توفيت في حدود الأربعين أيام معاوية رَضِّيَاللَّهُعَنهُ.

لله در أنس بن مالك وأمه!

وفي حياة أم أنس رَضِّيَاللَّهُعَنهَا للأم المسلمة فوائد وعبر كثيرة، منها:

- إقدامها علىٰ الخير، رغم ما يكتنفه من صعوبات ويحف به من مكاره، فقد سارعت مع السابقين الأولين إلىٰ الإسلام، ولم تتراجع عن إقدامها حين رفض زوجها موقفها، وهجرها لأجله، بل ثبتت علىٰ الحق.

- علو همتها، وحرصها علىٰ خير الخير لابنها.

- إبداعها في موقفها؛ إذ فكرت رَضِّيَاللَّهُعَنهَا في عمل حققت من خلاله خدمة الإسلام، وخدمة الرسول، وخدمة الأمة، وخدمة ابنها، وكان عملها ذلك فريدا من نوعه.

- حرصها علىٰ الإتقان في التربية، فلم تكتف بإيداع ولدها لدىٰ من تثق به السموات والأرض، حتىٰ دعمت تلك التربية بالسؤال والتحفيز والتشجيع والتأييد، وكان أنس يقول: كن أمهاتي يحثثني علىٰ خدمة رسول الله ﷺ[٢].

أجزل الله لأم سليم المثوبة والجزاء علىٰ ما أعطت الإسلام وبذلت لأجله، ورزقنا بأمهات مثلها يقمن بمثل عملها.

❁❁❁

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٩).

(٢)
أم الزبير بن العوام
رضي الله عنهما

هي: صفية بنت عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أحاط بها المجد من كل جانب، في كل ناحية وزاوية من زوايا النسب الأربع، فأمها: هالة بنت وهب، أخت: آمنة بنت وهب؛ أم النبي ﷺ، ووالدها: عبد المطلب بن هاشم، زعيم قريش، وصاحب البئر، وزوجها الأول: الحارث بن حرب، أخو سفيان بن حرب؛ زعيم قريش، والثاني: العوام بن خويلد، أخو خديجة بنت خويلد، سيدة نساء العالمين، وابن أخيها: النبي ﷺ، وابنها: الزبير بن العوام، أعجوبة زمانه، وحواري نبيه، وحسبه من وسام شرف يلبسه الزبير وتاج ينصب علىٰ رأسه، يذكر به في حياته وبعد رحيله، ثم توج هذا الشرف بإسلامها، فأصبحت تلك المرأة النادرة، والصحابية الباسلة الحازمة، التي خرج من بطنها أول فارس سلَّ سيفًا في سبيل الله.

ذلك الرجل الذي بلغ من البطولة والرجولة الحد الذي جعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزنه بألف رجل، عندما أرسل إليه عمرو بن العاص يطلب المدد لجيش المسلمين في مصر، فأجابه الفاروق: أما بعد، فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، علىٰ كل ألف منهم رجل مقام ألف رجل: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد.

وقد جمع الزبير المجد من أطرافه كما جمعته أمه، فزوجته: أسماء بنت الصديق، وأمه: عمة النبي الرفيق، وولده: عبد الله، أول مولود للمسلمين في المدينة، وعمته: خديجة بنت خويلد، أخت والده الذي توفي وتركه لأمه، فربته علىٰ الخشونة والبأس، والفروسية والحرب، وشب في كنفها، واستقىٰ طبعها، وانتهج نهجها.

علمته لعبة السهام وإصلاح القوس، وقذفته في كل محفل ترجو فيه له الشجاعة والإقدام، فإذا رأته أحجم وتردد ضربته، وعوتبت في ذلك، لكنها جزمت أن ضربها له لم يكن إلا ليصبح لبيبًا يهزم الجيوش، ثم دفعته إلىٰ التعامل مع المصاعب حتىٰ يصلب عوده.

دخلت صفية في الإسلام هي وابنها، وانضمت إلىٰ ركب المؤمنين، وعانت ما عاناه المسلمون، وتحملت الشدائد والمضايقات والتنكيل والمعارضات والعزلة والمقاطعة، ثم أعلنت هجرتها إلىٰ الله ورسوله، يرافقها البطل، وخلفت مكة وراء ظهرها، ويممت نحو المدينة فارة بدينها.

من يقرأ عن صفية ويتأمل سيرتها، يجدها امرأة قوية باسلة، توازي الآلاف، ويرىٰ فيها من الشجاعة في السلم والحرب الكثير، حتىٰ إنها لم تجعل لولدها خيارًا سوىٰ أن يرث ذلك عنها طوعا أو كرها.

في غزوة أحد، تنقل الماء، وتبري السهام، وتروي العطاش، وتصلح القسي، وتفاجأ بمقتل أخيها البطل الذي شابهها في خصال القوة والشجاعة والدفاع عن الدين الذي عاش يجاهد من أجل رفعته، ومات كذلك.

كأنثىٰ الأسد هي، تهجم هجومًا شرسًا ضاريًا، دون أن تنسىٰ شبلها في العرين، بل تقذف به أمامها، ليتعلم علىٰ مرأىٰ منها فنًّا من الفنون التي حازتها.

ينظر إليها وهي تأخذ الرمح وتشق به الصفوف، وتثقب حين ترميه الوجوه، وتبريه بريا ليصيب الهدف بدقة، وتزأر قائلة: ويحكم، انهزمتم عن رسول الله ...

حينها يخشىٰ عليها نبيُّها، ويأمر الشبل أن يبعدها عن موطن جثة الأسد المقتولة ظلمًا، المبقورة بطنًا، الممزقة أشلاء: أسد الله ورسوله، لكنها تثبت كعادتها، وتزأر أخرىٰ قائلة: مُثِّل بأسد الله، لا ضير إذن[(١)].

(١) انظر: «صور من حياة الصحابيات»، لعبد الرحمن الباشا (١/ ٣٨).

وفي الخندق يوم جهاد آخر وبطولة أخرىٰ؛ غارت بطولتها وتيقظ ذكاؤها، واشتعلت في داخلها نخوة الإسلام، فأبصرت شبحًا يهوديا، يقبل علىٰ الحصن الذي يضم النساء والأطفال في المدينة، فأحدت إليه بصرها، وأرهفت له السمع، وجعل اليهودي يطوف بالحصن متجسسًا علىٰ من فيه، فشعرت بالخطر يحدق بها وبغيرها، وأدركت أن الشر قد ترك أرض المعركة واستقبلهم، فلفت خمارها علىٰ رأسها وعمدت إلىٰ ثيابها فشدتها، وأخذت عمود النصر علىٰ عاتقها، ونزلت إلىٰ باب الحصن تترقب في يقظة، علها ترىٰ ذلك الشبح وتلقنه درسا لا ينساه في بطولة النساء، فاستبشرت لما رأته، وحملت عليه حملة حازمة صارمة، وضربته بالعمود علىٰ رأسه، فطرحته أرضا، وشدت علىٰ يديها وساعديها، وانهالت عليه بالضربات الواحدة تلو الأخرىٰ، حتىٰ أزهقت روحه، ثم بادرت بالسكين واجتزت الرأس، وقذفت به من أعلىٰ الحصن، وجعل يتدحرج حتىٰ ارتمىٰ أرضًا علىٰ مرأىٰ من اليهود، الذين فتك بهم الرعب، وأيقنوا حينها أن في الحصن رجالاً حماة، فغادروا المكان، وسلم الله يدًا من أيدي الرجال الحماة وإن كانت يد امرأة[1].

تعرض الزبير للاضطهاد، وعذب ونكل به، وتولىٰ عمه تعذيبه، هاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، لا تفتقده غزوة من الغزوات، فقد كان اسمه في مقدمة الحاضرين.

امتلأ جسده بالطعنات، وبقيت آثارها فيه تضيء كالأوسمة تحكي للرائي مجده التليد، يقول عنه أحد أصحابه: صحبتُ الزبير في بعض أسفاره، ورأيت جسدًا مجدعًا بالسيوف، وإن في صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمي، فقلت له: واللهِ لقد شهدت بجسمك ما لم أره بأحد قط. فقال لي: أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله، وفي سبيل الله.

(١) انظر: «صور من حياة الصحابيات»، لعبد الرحمن الباشا (١/ ٣٣).

ويوم اليرموك كان الزبير جيشًا وحده، رأىٰ المقاتلين يتراجعون القهقرىٰ، فصاح: (الله أكبر)، واخترق الأمواج الزاحفة في الروم وحده، ضاربًا بسيفه، وهو يتوهج، لا يكبو ولا ينبو.

كان شديد الولع بالشهادة، فسمىٰ أبناءه بأسماء الشهداء، علهم يستشهدون، وما ولي إمارة قط، ولا خراجًا ولا جباية، ولا شيئًا، إلا الغزو في سبيل الله، كان رفيع الخصال، عظيم الشمائل، وشجاعته وسخاؤه كفرسي رهان، يدير تجارة ناجحة، وكان ثراؤه عريضًا، لكنه أنفقه في الإسلام حتىٰ مات مدينًا.

كان توكله علىٰ الله منطلق جوده، حتىٰ وهو يجود بنفسه، أوصىٰ ولده عبد الله بقضاء ديونه، فقال له: إذا أعجزك دين، فاستعن بمولاي، فسأله عبد الله: أي مولىٰ تعني؟ فأجابه: الله، نِعم المولىٰ، ونِعم النصير، يقول عبد الله فيمَا بعد: فوالله ما وقعتُ في كربة مِن دَينه إلا قلت: يا مولىٰ الزبير! اقض دينه، فيقضيه[1].

قُتل في موقعة الجمل، وجاء قاتله إلىٰ عليٍّ يبشره، أن قُضي علىٰ عدوه، فصاح عليٌّ حين علم أن قاتل الزبير يستأذن بالدخول، وأمر بطرده، وهو يقول: بشروا قاتل ابن صفية بالنار، وجاؤوه بالسيف، فقبله، وبكىٰ، وانتحب، وقال: سيف طالما جلَا به صاحبُه الكربَ عن رسول الله ﷺ.

(ابن صفية)؛ هكذا دعاه عليٌّ رضي الله عنه، فله بنسبته إلىٰ أمه الشرف الذي يوازي نسبته إلىٰ أبيه، رضي الله عنهم أجمعين.

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٩).

(٣)
أم عبد الله بن الزبير
رضي الله عنها

هي: أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وأمها: هي قتيلة بنت عبد العزىٰ العامري، أسلمت قديمًا بمكة في أول الإسلام، بعد سبعة عشر نفسًا[(١)].

كانت صابرة محتسبة علىٰ الأذىٰ في الإسلام، قالت رضي الله عنها: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا علىٰ باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلتُ: لا أدري -واللهِ- أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي، ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ[(٢)].

روت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ثمانية وخمسين حديثًا، اتفق لها البخاري ومسلم علىٰ ثلاثة عشر حديثا، وانفرد البخاري بخمسة أحاديث، ومسلم بأربعة[(٣)].

شهدت رضي الله عنها موقعة اليرموك مع ابنها وزوجها[(٤)].

روىٰ ابن جرير الطبري رحمه الله، عن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: نزلت في أسماء بنت أبي بكر، وكانت لها أم في الجاهلية يقال لها: قتيلة بنت عبد العزىٰ، فأتتها بهدايا وصناب وأقط وسمن، فقالت: لا أقبل لك هدية، ولا تدخلي عليَّ حتىٰ يأذن رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

(١) انظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير (٨/ ٣٥٢).
(٢) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٧).
(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي (٢/ ٢٩٦).
(٤) انظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير (٨/ ٣٥٢).

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة:٨].(١).

هي أُمُّ أول مولود في المدينة بعد الهجرة، فقد روىٰ البخاري عن عروة بن الزبير عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأتيتُ المدينة، فنزلتُ قباء، فولدتُ بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له فبرَّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا؛ لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم(٢). وسماه النبي ﷺ: عبد الله، ثم جاء بعد، وهو ابن سبع، أو ابن ثمان سنين، يبايع النبي ﷺ، أمره الزبير رضي الله عنه بذلك، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلا، وبايعه(٣).

بميلاده بطل سحر يهود الذين كانوا يقولون: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، ولهذا لما ولد عبد الله فرح به المسلمون فرحًا شديدًا، وكبروا تكبيرًا ملأ الآفاق، بل أخذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين ولد، فطاف به بالمدينة بعد ولادته؛ ليشتهر أمر ميلاده علىٰ خلاف ما زعمت اليهود، ويقضي علىٰ شائعات اليهود التي روجوا لها بالمدينة.

وكان ابن الزبير ملازما للدخول علىٰ رسول الله لكونه من آله، فكان يتردد إلىٰ بيت خالته عائشة زوج الرسول(٤).

وفي هذا الخبر أن أسماء كانت تشارك في أعمال الهجرة وهي حامل بابنها عبد الله، فيالها من لحظات كريمة مرت علىٰ الابن المبارك وهو جنين في بطن أمه.

هكذا فتحَ الله بعبد الله وأمه علىٰ أهل الإسلام، حين شاركا في هذا الفتح العظيم.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٥/ ٦١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٤٦٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٦).
(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٦٤، ٣٦٥).

وفي هذا الخبر كذلك فتح الله بالأم وابنها –مرة ثانية- حين أتىٰ المسلمين بسببهما السرور والحبور، وأذهب بهما عنهم الهم والغم وتسلط أهل الكفر والفجور، فبطل سحر يهود وما كانوا يزعمون.

وهكذا كانت هذه الأم وابنها كريمين علىٰ أهل الإسلام حبيبين إلىٰ أهله، وما زادتهما الأيام ثم السنون بمرورها وتتابعها إلا كرامة وحبا.

روىٰ الشيخان عن أسماء بنت أبي بكر ﵄، قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح (بعير يستقىٰ عليه) وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز (أخيط) غربه (الدلو الكبير) وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوىٰ من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ علىٰ رأسي، وهي مِنِّي علىٰ ثلثَي فرسخ، فجئتُ يومًا والنوىٰ علىٰ رأسي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعاني، ثم قال: «إخ إخ»؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت، فمضىٰ، فجئتُ الزبيرَ فقلت: لقيني رسول الله ﷺ، وعلىٰ رأسي النوىٰ، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه، وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوىٰ كان أشد علي من ركوبك معه، قالت: حتىٰ أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس (ترويضها وتدريبها)، فكأنما أعتقني[(١)].

قال عكرمة: كانت أسماء بنت أبي بكر ﵄ تحت الزبير بن العوام، وكان شديدا عليها، فأتت أباها، فشكت ذلك إليه، فقال: يا بنية اصبري؛ فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح، ثم مات عنها، فلم تزوَّج بعده، جُمع بينهما في الجنة[(٢)].

قال عبد الله بن الزبير: ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء؛ وجودهما

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرىٰ»؛ لابن سعد (٨/ ١٩٧).

مختلف: أما عائشة، فكانت تجمع الشيء إلىٰ الشيء، حتىٰ إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه، وأما أسماء، فكانت لا تدخر شيئًا لغد[(١)].

عاش عبد الله في كنف أمه أسماء، تربيه وترعاه، وتسقيه الخير وتغذيه به، حتىٰ نشأ وترعرع وشب وكبر، يحمل الإسلام في قلبه، والقيم الرفيعة، والخلال الحميدة، عن أمه وأبيه وجده لأمه أبي بكر الصديق وخالته عائشة أم المؤمنين وجدته صفية، وقبل أولئك جميعا عن رسول الله ﷺ، فتخرج ابن الزبير عالما عابدا فقيها ورعا، مهيبًا وقورًا، كثير الصيام والصلاة، شديد الخشوع، قوي السياسة، كما يستقرئ ابن كثير من أخباره[(٢)].

روىٰ أبو نعيم في الحلية أن ابنها عروة دخل عليها ذات يوم وهي تصلي، فسمعها تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧].، فبكت، واستعاذت، فقام وهي تستعيذ، فلما طال عليه قيامها أتىٰ السوق، وقضىٰ منه حاجته، ثم رجع، فوجدها ما تزال في بكائها، تستعيذ[(٣)].

وهكذا كانت تربية أسماء لعبد الله تربية عملية، ليست تربية وعظية أو قولية فحسب، مِن ثَمَّ كان ابنها عبد الله في كل مجال ورثه عنها – وعن آبائه وشيوخه – مثلا وقدوة، حتىٰ قال عنه ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن الزبير قارئًا لكتاب الله، متبعًا لسنة رسول الله ﷺ، قانتًا لله، صائمًا في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه: بنت الصديق، وخالته: عائشة؛ حبيبة حبيب الله، وزوجة رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعمىٰ الله بصيرته[(٤)].

سيدرك المسلمون يوما أن من أسباب خلاصهم من أزمتهم، ومخرجهم من كبوتهم، ونجاتهم من منحدرهم، وعودة مجدهم وحضارتهم: رعاية المرأة،

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء»؛ للذهبي (٢/ ٢٩٢).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠٤).
(٣) انظر: «الحلية» (٢/ ٥٥).
(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٦٧)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٩١)، و«عبد الله بن الزبير» (١٢).

وإعطاؤها الأهمية الكبرىٰ التي أولاها إياها المسلمون الأوائل، ومتىٰ فرطوا في ذلك، وأغفلوه، وحادوا عن طريقه، وما رعوه حق رعايته؛ فسيظلون في هذه الهاجرة القاحلة، يشقيهم لفحها القاتل، ويضنيهم طول المشي في التيه والضلال.

كان ابن الزبير في عهد النبي ﷺ مجاهدًا في سبيل الله ضمن الصفوف الأولىٰ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد معاوية ﷺ كان في طلائع الفتح الإسلامي في إفريقيا ومحاولات فتح القسطنطينية.

كان لأسماء ﷺ عظيم الأثر في تربيتها لأبنائها، فقد كانوا من عظماء الإسلام، ولها مواقف كثيرة مع أبنائها، من أهمها:

دخل عبد الله بن الزبير علىٰ أمه حين رأىٰ من الناس خذلانهم، فقال: يا أمه، خذلني الناس، حتىٰ ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت واللهِ يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك علىٰ حق وإليه تدعو، فامض له؛ فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتل معك، وإن قلت: كنت علىٰ حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن، فدنا ابن الزبير فقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيا إلىٰ يومي هذا، ما ركنت إلىٰ الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلىٰ الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملا بفاحشة، ولم يجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهَد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي، فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي،

ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، اخرج حتىٰ أنظر إلىٰ ما يصير أمرك، قال: جزاك الله يا أمه خيرًا، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبدًا، فمن قتل علىٰ باطل فقد قتلت علىٰ حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين(١).

دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب علىٰ أسماء بنت أبي بكر وابنها مصلوب، فقال لها: إن هذا الجسد ليس بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاتقي الله واصبري، فقالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيىٰ بن زكريا إلىٰ بغي من بغايا بني إسرائيل؟(٢).

روىٰ الحاكم عن مصعب بن عبد الله بن الزبير، قال: ماتت أسماء بنت أبي بكر بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير بليال، وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث وسبعين(٣).

كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها خاتمة من مات من المهاجرين والمهاجرات(٤). رضي الله عنها وأرضاها.

❁❁❁

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٦/ ١٨٨-١٨٩).
(٢) انظر: «البداية والنهاية»؛ لابن كثير (٨/ ٣٥٢).
(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٧٢).
(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء»؛ للذهبي (٢/ ٢٩٦).

(٤)
المجاهدة الصابرة أم عمارة
رضي الله عنها

هي: أم عمارة، نسيبة بنت كعب بن عمرو.

ترجم لها الذهبي في سير أعلام النبلاء بقوله: أم عمارة، نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية الفاضل، شهدت ليلة العقبة، وشهدت أُحُداً والحديبية ويوم حنين ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلت الأفاعيل[(١)].

امرأة يعجز القلم عن وصف فضائلها ومكارمها، كانت من أوائل من بايع النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية، وقد رسمت من خلال هذه البيعة، وخطت منهجًا جديدًا لمكانة المرأة في الإسلام، منهجًا يحوطه الكثير من القيم التي سترتقي إليها المرأة لتعزيز مكانتها وإعلاء شأنها.

بينت للمرأة المسلمة دورها المهم في خدمة الدين والمجتمع، فقدمت للنساء في كل عصر دروسا وضاءة فيما يجب أن تكون عليه حياة المرأة المسلمة في واقعها، وأن تضع حدودا فاصلة بين أوهام الدعاوىٰ التحررية المزيفة، وضلالات التقاليد الخرافية، ليتضح بين هذا وذاك وسطية الإسلام في مواقفها التلقائية، التي برزت من خلالها حقوق ذهبية، وهبات كالكنوز، مُنحت للمرأة المسلمة.

وصفها الإمام أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، فقال: أم عمارة، المبايعة بالعقبة، المحاربة عن الرجال والشيبة، كانت ذات جد واجتهاد، وصوم ونسك واعتماد[(٢)].

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء»؛ للذهبي (٢/ ٢٧٨).

(٢) انظر: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»؛ للأصبهاني (٢/ ٦٤).

إنها امرأة وهبت طاقاتها وسخرتها من موقعها كأم في بناء أسرتها بالتربية القويمة والتنشئة الطيبة.

امرأة امتلأ قلبها بحب الله تعالىٰ وحب نبيه ﷺ، فضربت أعظم الأمثلة في حب هذا الدين الحنيف وخدمته، فقدمت صفوة الأوقات، وعظيم الجهد، وبذلت في سبيل ذلك الحب كل ما هو غال ونفيس.

كانت أنموذجًا فريدًا، حين عكفت علىٰ تربية أولادها، تلقنهم وتغرس فيهم الإسلام وأسسه، فأخذوا ينهلون من هذا النبع الصافي، فصاغتهم رجالا بحق، ليضربوا بعد ذلك أروع الأمثلة في البطولة والجهاد.

ولم تكن تلك التضحية التي ملأت علىٰ أم عمارة فؤادها، نتيجة عابرة تزول علىٰ مر الأيام؛ بل كان مصدرها إيمانًا عميقًا، ويقينًا بالله ورسوله، وهو إيمان ثابت لا يزول أو يتزحزح أمام أي قوة من قوىٰ الظلم، فاستطاعت بذلك أن تسجل من الأعمال والفضائل ما قل نظيره في زماننا اليوم، وأن تسجل أعظم البطولات التي خلد التاريخ ذكرها، وسطرها بمداد من نور، وتناقلتها الأجيال جيلا بعد جيل.

فالأسرة أهم مؤسسة تربوية في المجتمع، وهي النواة الأولىٰ التي يتلقىٰ فيها النشء معارفهم الأولية، فإذا صلحت صلح المجتمع كله، وإذا فسدت فسد المجتمع كله.

أدركت أم عمارة رضي الله عنها أن التكليف الأول لكل أُمّ تدعو بدعوة الحق هو داخل أسرتها، وأي دعوة لها خارج الأسرة ابتداء وقبل النظر في حال الأولاد، يُعدُّ ضربًا من السفاهة، لذا سعت وعكفت رضي الله عنها علىٰ تربية أولادها، تلقنهم وتغرس فيهم الإسلام وأسسه، فأحسنت تربية أولادها، وملأت قلوبهم إيمانا، وصدورهم شجاعة، وسواعدهم قوة، فما لبثت ثمار تلك التربية الصالحة حتىٰ أينعت علىٰ أرض الواقع وأعطت أكلها، شبابًا يحبون الله ورسوله، ويسارعون في ذلك.

ونلاحظ ثمار تلك التربية الصالحة جليًّا في موقفين[(١)]:

أما الموقف الأول: يوم أحد، حين قدمت هي وابناها حبيب وعبد الله وزوجها -رضي الله عنهم- المثل الأعلىٰ في الجهاد والفداء، فتقول أم عمارة: خرجت أول النهار إلىٰ أحد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلىٰ رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والغلبة للمسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحزت إلىٰ رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال، وأدافع عنه بالسيف، وأرمي بالقوس، حتىٰ خلصت إليَّ الجراح، تقول راوية الحديث - وهي جميلة بنت سعد بن الربيع -: فرأيت علىٰ كتفها جُرحًا له غور أجوف.

وقالت أم عمارة: انكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا نفر ما يتممون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه، نذب عنه ﷺ، والناس يمرون منهزمين، ورآني ﷺ لا ترس معي، فرأىٰ رجلا مُولِّيا معه ترس، فقال لصاحب الترس: «**ألق ترسك إلىٰ من يقاتل**»، فألقىٰ ترسه، فأخذته، فجعلت أتترس به عن رسول الله، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله، فأقبل رجل عليَّ علىٰ فرس، فضربني، وتترست له، فلم يصنع سيفه شيئًا، وولىٰ، فضربت عرقوب فرسه، فوقع علىٰ ظهره، فجعل النبي ﷺ ينادي: «**يا ابن أم عمارة، أمك أمك**». قالت: فعاونني عليه، حتىٰ أوردته شعوب (شعوب: اسم من أسماء النار).

وقد جُرحت في ذلك اليوم، ثلاثة عشر جرحًا. وأثنىٰ عليها رسول الله ﷺ بقوله: «**لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان**».

وفي المعركة يصاب ابنها عبد الله، بجرح في عضده الأيسر، وغدَا ينزف نزفًا غزيرًا، فراحت الأم تمرضه وتضمده، حتىٰ إذا اطمأنت عليه قالت له: انهض بني، فضارب القوم، فجعل النبي ﷺ يقول: «**ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة**».

---

(١) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٦٨).

قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله: «هذا ضارب ابنك». قالت: فأعترض له، فأضرب ساقه، فبرك، قالت: فرأيت رسول الله يتبسم، حتىٰ رأيت نواجذه، وقال: «استقَدْتِ يا أم عمارة»، ثم أقبلنا نعله بالسلاح، حتىٰ أتينا علىٰ نفَسه، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفرك، وأقر عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينك».

ثم بدأ رسول الله ﷺ يدعو لهذه الأسرة الفاضلة قائلا: «بارك الله عليكم من أهل بيت، ورحمكم الله أهل بيت». وحيث أن طموح أم عمارة كبير، وبضاعتها ليست في هذه الدنيا، فقالت: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة». فما كان منها بعد أن سمعت ذلك وهي في خضم المعركة إلا أن تبكي دموع الفرح وهي تقول: ما أبالي بعدها ما أصابني من الدنيا.

وقد شوهدت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ذلك اليوم المشهود، وهي تقاتل أشد القتال، وكانت تحجز ثوبها علىٰ وسطها، حتىٰ جُرحت ثلاثة عشر جرحًا، وكان أعظم هذه الجراح ناشئا من ضربة الفارس المشرك ابن قميئة، لما ضربها الشقي وهي تدافع بجسدها عن رسول الله ﷺ، وجلست تداوي جرحها ذلك سنة كاملة.

وبعد المعركة، نادىٰ منادي رسول الله ﷺ: إلىٰ حمراء الأسد، فشدَّت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثوا ليلتهم يضمدون الجراح حتىٰ أصبحوا، فلما رجع رسول الله ﷺ من حمراء الأسد، ما وصل ﷺ إلىٰ بيته حتىٰ أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسُرّ بذلك ﷺ.

وقيل لأم عمارة: يا أم عمارة، هل كنَّ نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهن؟ فقالت: أعوذ بالله، لا، والله، ما رأيت امرأة منهن رمت بسهم ولا حجر، ولكن رأيت معهن الدفاف والأكبار، يضربن، ويذكرن القوم قتلىٰ بدر.

وأما الموقف الثاني: وهو لما ادعىٰ مسيلمة الكذاب النبوة، وأرسل برسالة

إلىٰ رسول الله ﷺ، قال فيها: من مسيلمة رسول الله، إلىٰ محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد؛ فإني قد أُشرِكت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون[(١)].

فرد عليه رسول الله ﷺ: «**من محمد رسول الله، إلىٰ مسيلمة الكذاب، السلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد؛ ف ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾** [الأعراف:١٢٨] ».

وندب رسول ﷺ لحمل الرسالة حبيب بن زيد الأنصاري -ابن أم عمارة-، وما كان اختيار النبي ﷺ لهذا الشاب، إلا لما عرف عن أهل بيته من التضحية والعطاء والبذل.

فذهب الشاب غير خائف ولا متباطئ، حتىٰ دخل علىٰ مسيلمة الكذاب، ودفع إليه الرسالة، فلما قرأها مسيلمة، أمر بحبيب، فقُيِّد وحُبس، ثم أحضروه في اليوم التالي وسط الجموع، فقال له مسيلمة: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، أشهد أن محمدًا رسول الله، فقال: وتشهد أني رسول الله؟، فقال حبيب: أنا أصم، لا أسمع، فتغير لون وجه مسيلمة، وأمر الجلاد بقطع قطعة من جسده، ثم أعاد عليه السؤال، ليسمع نفس الإجابة، فأمر مسيلمة بقطع قطعة أخرىٰ من جسد حبيب رضي الله عنه، والناس ينظرون. واستمر مسيلمة يسأل، وحبيب يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، والجلاد يقطع من جسده، حتىٰ أصبح ما يقرب من نصف جسده قطعًا مقطعة، ثم فاضت روحه وعلىٰ لسانه وفي قلبه اسم سيد العالمين: محمد رسول الله ﷺ[(٢)].

فقالت أمه أم عمارة حين بلغها نبأ استشهاد ابنها: لمثل هذا أعددته،

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٠٠).
(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٤٦٦).

وعند الله احتسبته، لقد بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة صغيرًا، ووفىٰ له اليوم كبيرًا، ولئن أمكنني الله من مسيلمة؛ لأجعلن بناته يلطمن الخدود عليه.

وحقق الله أمنية هذه الأم الفاضلة الصابرة، وجاء يوم اليمامة الأغر، فانتقم الله جل جلاله لفتاها البر التقي من قاتله مسيلمة، حيث شهدت قتال مسيلمة باليمامة، وذلك حين تهيأ بعث خالد رضي الله عنه إلىٰ اليمامة، جاءت إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه، فاستأذنته للخروج، فقال: قد عرفنا جزاءك في الحرب، فاخرجي علىٰ اسم الله، وأوصىٰ خالد بن الوليد بها، وكان مستوصيا بها، وقد جاهدت باليمامة أجلَّ جهاد، وقُطعت يدها.

فعن أم سعد بنت سعد بن الربيع قالت: رأيتُ نسيبة بنت كعب ويدها مقطوعة، فقلت لها: متىٰ قُطعت يدك؟ قالت: يوم اليمامة، كنت مع الأنصار، فانتهينا إلىٰ حديقة، فاقتتلوا عليها ساعة، حتىٰ قال أبو دجانة الأنصاري: احملوني علىٰ الترسة، حتىٰ تطرحوني عليهم، فأشغلهم، فحملوه علىٰ الترس، وألقوه فيهم، فقاتلهم حتىٰ قتلوه، رحمه الله، قالت: فدخلت وأنا أريد عدو الله مسيلمة الكذاب، فعرض إلي رجل منهم، فضربني، فقطع يدي، فو الله ما عرجت عليها، ولم أزل حتىٰ وقعت علىٰ الخبيث مقتولاً، وابني يمسح سيفه بثيابه، فقلت له: أقتلته يا بني؟ قال: نعم، يا أماه، فسجدت لله شكرًا. -وابنها هو: عبد الله بن زيد بن عاصم-[(١)].

ونعود إلىٰ مشاهدها مع النبي ﷺ، فقد شهدت غزوة بني قريضة في السنة الرابعة من الهجرة، ومما يدل علىٰ دورها الفاعل في تلك الغزوة: ما خُصص لها من قسمة الغنائم.

وفي سنة ست للهجرة، تخرج أم عمارة رضي الله عنها ثانية مع رسول الله ﷺ، وقد يمَّمُوا وجوههم صوب خيبر، بعد رجوعهم من الحديبية، فقد كانت ممن بايع بيعة الرضوان، وكان في الجيش عشرون امرأة، كانت أم عمارة علىٰ رأسهن، تداوي

---

(١) انظر: «الروض الأنف في شرح السيرة النبوية»، لابن هشام (٥/ ٣١٦).

الجرحىٰ، وتناول السهام، وتسقي السويق، وضربت بذلك مثلا آخر في جاهزية المجتمع المسلم إذا نزلت به النوازل وقت الحرب والنفير.

وها هي أم عمارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تضرب أروع الأمثلة الأخرىٰ في دفاعها عن العقيدة، وتشترك بصورة مباشرة في أحداث قلب المعركة في غزوة حنين بعد فتح مكة، قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما كان يوم حنين، والناس منهزمون في كل وجه، وأنا وأربع نسوة في يدي سيف صارم، وأم سليم قد حزمت وسطها، وهي يومئذ حامل، وأم سليط، وأم الحارث، فجعلت أسل السيف، وأصيح بالأنصار: أية عادة هذه؟! ما لكم وللفرار؟! وأنظر إلىٰ رجل مشرك من هوازن علىٰ جمل، معه لواء، يريد أن يوضع جمله في أثر المسلمين، فأعترض له، فأضرب عرقوب الجمل، فوقع علىٰ عجزه، وأشد عليه، فلم أزل أضربه حتىٰ أثبتُّه، وأخذت سيفا له، ورسول الله قائم مصلت السيف بيده، قد طرح غمده، ينادي: يا أصحاب سورة البقرة[(١)].

وقد عرف الصحابة لأم عمارة قدرها، وثمنوا بلاءها في الإسلام، فمِن المواقف: أنه أُتي عمر بن الخطاب بمروط، فكان فيها مرط جيد واسع، فقال بعضهم: إن هذا المرط لثمنه كذا وكذا، فلو أرسلت به إلىٰ زوجة عبد الله بن عمر: صفية بنت أبي عبيد، وذلك حدثان ما دخلت علىٰ ابن عمر، فقال: ابْعَث به إلىٰ من هو أحق به منها: أم عمارة نسيبة بنت كعب، سمعت رسول الله ﷺ، يقول يوم أحد: «**ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني**».

وتمر السنون وأم عمارة في خدرها عابدة ساجدة زاهدة، تتذكر وتحن إلىٰ ما خلا من أعوام ماضيات، حافلات بالجهاد والتضحيات، وظلت السيدة المؤمنة تعبد ربها حتىٰ أتاها اليقين، حين صعدت النفس المطمئنة إلىٰ بارئها، وكان ذلك نحو سنة ١٣ من الهجرة، وعُدَّت جراحها أثناء تغسيلها جُرحًا جُرحًا، فإذا بها ثلاثة عشر جُرحًا. ورقد الجثمان الطاهر في البقيع، إلىٰ جوار من سبقه من الصديقين

---

(١) انظر: «مغازي الواقدي» (٣/٩٠٣).

والشهداء والصالحين، وارتفع مقام أم عمارة في الأرض إلىٰ مقام أعلىٰ وأسمىٰ في دار الخلود، بعد حياة قضتها وهي تجاهد في سبيل الله جنبًا إلىٰ جنب مع أسرتها المؤمنة الصابرة، فرضي الله عنها وأرضاها، فكم طبعت مواقفها علىٰ صفحات التاريخ دروسا عظيمة فيما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة.

وما أحوج جيلنا المعاصر إلىٰ الاقتباس من هدي مثل هؤلاء الأنجم الزاهرات، وهن يعطين المثل العظيم والبرهان الساطع لمن عرف واجبه خير المعرفة، فبذل وضحىٰ بالكثير في سبيل دين الله، حين صدق ما عاهد الله عليه.

وما أحوجك أيتها المرأة المسلمة أمًّا كنتِ أو زوجة أو بنتًا أو أختًا، وخاصة في هذا الزمن، الذي يموج بتيارت شتىٰ من الفتن، وطرق الغواية المبثوثة من وسائل الإعلام بكل أصنافها.

وما أحوجك أيتها المرأة المسلمة إلىٰ قراءة السيرة العطرة لهؤلاء الصحابيات الجليلات، حتىٰ تدركين في أي الطريق أنت سائرة، فإن وجدت نفسك تسيرين علىٰ النهج الذي رسمه القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف، فتابعي مسيرك علىٰ بركة الله عز وجل، ولا تستوحشي لقلة السالكين. وإن وجدت نفسك بعكس هذا المنهج التربوي الكريم، فلا زال الوقت أمامك في الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ رجوعًا صادقًا بتوبة نصوح صادقة، وإياك أيتها المسلمة من التسويف، فالتسويف والتأجيل مهلكة للإنسان، وسبب لضياع عزيمته، وهوان دينه في نفسه.

❁❁❁

(٥)
أم الشهداء الخنساء
رضي الله عنها

هي: تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية، لقبت: بالخنساء.

أجمعَ أهل الشعر علىٰ أنه لم تكن امرأة قط أشعر منها، قدمت علىٰ النبي ﷺ مع قومها من بني سليم، فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها، ويعجبه شعرها، وكانت تنشده، وهو يقول: «هيه يا خناس»، ويومئ بيده[١].

كانت رضي الله عنها عندما قتل أخويها (صخر ومعاوية) في الجاهلية، أصابها الحزن الشديد، وبكتهما سنين طويلة، وندبتهما بشعرها الحزين، وأسرفت في ذلك حتىٰ امتلأ ديوانها بشعر الرثاء، ومما قالته في رثاء أخيها صخر:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا ... وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... علىٰ إخوانهم لقتلت نفسي

وقالت فيه أيضًا:

وإن صخرًا لوالينا وسيدنا ... وإن صخرًا إذا نشتو لنحار
وإن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار
مثل الرديني لم تنفذ شبيبته ... كأنه تحت طي البرد أسوار

وقالت تنعي أخاها معاوية:

ألا لا أرىٰ في الناس مثل معاويه ... إذا طرقت إحدىٰ الليالي بداهيه
ألا لا أرىٰ كفارس (الجون) فارسًا ... إذا ما دعته جرأة وعلانيه
فأقسمت لا ينفك دمعي وعولتي ... عليك بحزن ما دعا الله داعيه

---
(١) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١٣/ ٣٣٤)، و«أسد الغابة» (٦/ ٨٩).

هكذا كان حالها بعد مقتل أخويها في الجاهلية، بكاء وحزن ورثاء لسنوات طويلة، لم يبق لها دمع ولم يهنئ لها جفن.

إلا أن حالها لما دخل نور الإسلام في قلبها اختلف تماما عن حالها في الجاهلية، فقد جاهدت في حرب فارس، وحضرت موقعة القادسية العظيمة، واشتركت فيها بصحبة أبنائها الأربعة، وقبل نزولهم ساحة الوغىٰ؛ جمعتهم، وأوقدت في قلوبهم جذوة الإيمان، ونور اليقين، بتلك الكلمات الخالدة:

يا بَنِيَّ، إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، واللهِ الذي لا إله غيره، إنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية؛ يقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من فوز وجنات النعيم، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلىٰ قتال عدوكم مستبصرين، وإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقيها واضطرمت، فتيمموا وطيسَها، وجالدوا رئيسَها عند احتدام خميسها، تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلد والكرامة.

ولما كان الصباح احتدم وطيس الحرب، فتقدم أبناؤها الأربعة، واشتدوا علىٰ عدوهم غير مبالين بالموت، حتىٰ قضوا نحبهم جميعا.

ولما بلغ خبر استشهادهم إلىٰ الخنساء -بعد أن حرضتهم علىٰ القتال- لم تجزع، بل قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

وفرض لها عمر بن الخطاب ﷺ من بيت المال ما كانت تحصل عليه من أبنائها.

كان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة؛ عندما أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سعدًا ابن أبي وقاص رضي الله عنهما علىٰ رأس جيش لفتح العراق وتحريرها من الفرس.

سار الجيش في سبيل الله تعالىٰ، حتىٰ وصلوا القادسية من أراضي العراق، وهناك التقىٰ الجيشان؛ جيش المسلمين وقائدهم سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، وجيش الفرس وقائدهم رستم، وقد اختلف المؤرخون في عدد جيش المسلمين، والأرجح أنهم بلغوا الثلاثين ألف مسلم، كما اختلفوا في عدد جيش الفرس ما بين الستين والمائة والعشرين ألفا، فضلاً أن مع جيش فارس آلة قتال لم يعهدها المسلمون من قبل ولم يألفوها، وعدد من الفيلة؛ قيل أنها: ثلاثون فيلاً، وقيل: سبعون فيلاً.

كان اليوم الأول من المعركة يومًا شديدًا علىٰ المسلمين، حيث جعلت الخيول تفر بسبب رؤيتها للفيلة وسماعها لصوتها.

شاركت الخنساء في معركة القادسية ضمن جمع النساء، فكن يخدمن الجيش، ويطعمن ويسقين ويرعين أمور الجند، ويرددن الجرحىٰ والقتلىٰ إلىٰ معسكر المسلمين، اغتم المسلمون لما حدث في اليوم الأول من المعركة بسبب الفيلة، فاجتمع سعد قائد جيش المسلمين بكبار قادته يسألهم عن حيلة تمكنهم من التغلب علىٰ الفيلة، فوقفوا علىٰ حيلتين بارعتين: أحدها أن يصوب بعض الرماة نبالهم علىٰ ركبان الفيلة فينشغلون بصد النبال عن أنفسهم، فيقوم المسلمون بالتسلل إلىٰ خلف الفيلة ليقطعوا الركائب المشدودة علىٰ ظهورها ليسقط الركبان، فأسفرت هذه الحيلة عن ارتفاع أصوات الفيلة، وهيجانها يمينًا وشمالاً، فضلا عن إصابة بعضها بالسهام، أما الحيلة الثانية: فهي إلباس بعض الإبل لباسًا مبرقعًا تظهر فيه الإبل شبيهة بالفيلة، مما جعل الفيلة تتوقف عن التقدم بين صفوف المسلمين.

ثلاثة أيام مضت والحرب سجال بين المسلمين والفرس، لا غلبة لأحد الطرفين علىٰ الآخر.

في اليوم الرابع، جمعت الخنساء أولادها الأربع، وقالت فيهم كلمتها -السابقة-، وقتلوا كلهم في هذا اليوم الذي تم النصر للمسلمين بعد قتال شديد، وقتل رستم قائد الفرس، وفر جنوده لا يلوون علىٰ شيء.

إن من يمعن النظر في موقف الخنساء رضي الله عنها من استشهاد أولادها الأربعة في يوم واحد، وموقفها قبل الإسلام من مقتل أخويها، لا يصدق أنها نفس المرأة التي بقيت زمنا طويلا ترثي وتبكي أخويها.

إنه الإيمان والرضا والاستسلام لقضاء الله عز وجل، هي أم لا كالأمهات، أم تصنع الأبطال، أم تذكرنا بأمجاد الإسلام وعزته.

رحم الله الخنساء، ورحم أولادها الأربعة، ورحم عمر أمير المؤمنين الذي بادر صبر العجوز واستبسالها بالدفاع عن دين الله بالشكر والامتنان، فأجرىٰ لها أرزاق أولادها الأربعة حتىٰ قبض رحمه الله.

❁❁❁

(٦)
أم الإمام مالك بن أنس
رحمهما الله تعالى

هي: عالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية.

إنها خير من يضرب بها المثل في تقدير العلم ومعرفة منزلة العلماء، وما يجب لهم من التوقير والاحترام، وما يجب لطلب العلم من آداب وأخلاق، بل فوق ذلك حين تدرك من يؤخذ عنه العلم ومن يترك، وما العلم الذي يولىٰ الأهمية فيؤثر علىٰ غيره ويقدم؟.

وإذا كان مالك رحمه الله قد أوتي الهمة العالية في طلب العلم، والصبر علىٰ الأخذ عن العلماء، فإن الفضل يعود إلىٰ أمه في اختيار هؤلاء العلماء الذين يقصرون عليه عمر التعلم، ويوفرون له الجهد، ويسددون له الفهم.

حدث مالك رحمه الله تعالىٰ عن بعض نصائح أمه له في العلم فقال: كانت أمي تعممني، وتقول لي: اذهب إلىٰ ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه[(١)].

إنه يقص علينا في هذه الجملة القصيرة حكمًا، ويهبنا دررًا.

فهي -أولاً- توجهه إلىٰ طلب العلم، وسنه إذ ذاك صغيرة مبكرة، وساحات الخير يومئذ كثيرة، تختار الأم الذكية الفطنة أن تضع ابنها في ميدان تحصيل منازل ورثة الأنبياء، وفي ذلك دلالة علىٰ أنها تعرف فضل العلم ومنزلة أهله.

وهي -ثانيًا- إذ تختار له أن يطلب العلم، لا ترضىٰ بأي من أبوابه وكفىٰ، بل تختار خيرها وأفضلها وأعظمها، إنها تختار الفقه، والفقه لب العلم، وهذا برهان بعد البرهان الأول علىٰ دقة فقهها وحسن فهمها.

ثم هي -ثالثًا- تختار من بين الفقهاء الموجودين يومئذ أفضلهم فضلاً

---

(١) انظر: «المدارك» (١١٥).

وأعلاهم كعبًا، تختار ربيعة الإمام، مفتي المدينة، وعالم الوقت[(١)].

وإذ تجهزت أم مالك بخطة مالك في الطلب، فقد بقي أن تجهز مالكا نفسه لما تريده له وما يريده هو أيضًا لنفسه: فتعمد إلىٰ شكله الظاهر، وهو أول ما يقع عليه منه نظر معلمه وأترابه والناس، فيهش له المعلم إذا رآه، ويفرح إخوانه بالجلوس إلىٰ جواره، ويرىٰ فيه الناس سمت العلم والعلماء صغيرًا، فتوضع له مهابة في قلوبهم، ويجري له الثناء من ألسنتهم، وذلك كله يحفزه للعلم، ويدفعه للطلب، ويعلي همته في سبيل التحصيل. ولهذا بادرت، فعممته بعمامة، وألبسته أفضل ثيابه، وقبل ذلك لا شك غسلته ووضأته ورجلته وطيبته.

ولقد ظلت تلك عادة مالك رحمه الله بعد ذلك في جميع حياته، فكان إذا أراد أن يخرج ليحدث الناس، توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقر به حديث رسول الله ﷺ[(٢)].

وفي وصف آخر لحاله يقول أحد الرواة: كان مالك بن أنس: إذا أراد أن يجلس للحديث؛ اغتسل، وتبخر، وتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه زجره[(٣)].

وقد أورث مالكا ذلك التحفظ والتوقير للعلم تعظيما شديدا لحديث رسول الله ﷺ، وهو أفضل العلم بعد القرآن الكريم، فكان لا يكتب حديث رسول الله ﷺ عن غيره وهو قائم، ولا يحدث به غيره وهو قائم، وسئل مرة: أسمعت عن عمرو بن دينار؟ فقال: رأيته يحدث، والناس قيام يكتبون، فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم[(٤)].

لقد مضىٰ مالك علىٰ سنة أمه التي سنتها له يوم خرج للعلم يطلبه صغيرًا،

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٩).
(٢) انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٨٠).
(٣) انظر: «تذهيب تهذيب الكمال» (٨/ ٣٥٤).
(٤) انظر: «المدارك» (١/ ١٢٣).

فظلت تلك حاله حتىٰ وهو يبذل العلم كبيرًا، قال مطرف، قال مالك: قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعال، فالبس ثياب العلم، فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة علىٰ رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: اذهب، فاكتب الآن.

هل وَعيتنَّ الدرس يا أمهات محمد، وأنس، ومعاذ، وعلي، ورضوان، وزيد، وأحمد؟!

إنها رحمها الله تعطي دروسا للأمهات من بعدها جيلا بعد جيل، فهل وصل الدرس لأمهات هذا الجيل؟ فعلمن أن أهم المراحل في العمر هي مرحلة الصغر، فتداركنها، فعملن كأم مالك، لأنها مرحلة لها ما بعدها.

هل وعيتن أن نشأكم علىٰ ما نشأتموه عليه، وأن صغيركم يشب علىٰ ما شاب عليه؟ وأن المحاسن تغرس غرسًا، وخير غراسها في الصغر؟

وهل يجهل أحد من هو مالك؟ وما هي مكانته؟ وما مقدار نفعه لأمة محمد ﷺ؟ وما عدد أتباعه الآخذين لمذهبه خلال الأزمان؟ مما يرجىٰ معه أن يكون من أكثر الناس حسنات يوم القيامة، ومثل ذلك يكون في ميزان والديه؟

إنها لغفلة شديدة من الأم المسلمة أن تفرط في هذا الأجر العظيم، إذا أتيحت لها الفرصة مرة وربما مرات، بعدد الأبناء والبنات اللاتي إن تربين هن الأخريات علىٰ ذلك، فيربين أبناءهن عليه أيضًا.

(تعال، فالبس ثياب العلم)، هكذا بيقين تعرف العالية بنت شريك الأزدية -وهذا هو اسم أم مالك- العلم، وثيابه، وما ينبغي لمن رامه من لباس وزينة ومظهر ووقار.

وكيف لا، ووالد مالك وأعمامه وجده كانوا من العلماء المحدثين، حملة سنة خير النبيين صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فجده مالك بن أبي عامر، من كبار التابعين، وهو ممن رووا عن صحابة النبي ﷺ، وفي مقدمتهم عمر وعثمان وطلحة

وعائشة، وكذلك كان أبوه، وإن لـم يكـن في منزلـة جـده من الحديث، فالأسرة – إذن – أهل علم وسنة[(١)].

ينتهي نسب الإمام مالك إلىٰ قبيلة يمنية هي قبيلة ذو أصبح، وأمه أزدية، فأبوه وأمه عربيان يمنيان[(٢)].

وإذا كانت "الحكمة يمانية"[(٣)]، فإن أم مالك قد أوتيت منها نصيبًا كبيرًا، وهذا ما يتضح بجلاء في مقالتها التي معنا.

أشرنا فيما سبق إلىٰ ما تضمنته هذه المقالة من اهتمام أم مالك بمظهر ابنها، طالب العلم الجديد الذي سيخرج الآن يغشىٰ المجالس، ويكتب العلم الشريف، ولم تقتصر في وصاياها له علىٰ ذلك، بل ضمنتها الوصية بالآداب والأخلاق التي يجب أن يتأدب بها في مجلسه، فينبغي بعدَ أَنْ أخذ الأهبة أن يسارع إلىٰ المجلس ولا يتأخر عنه، وأن يحدد هدفه من بيته، فيعلم إلىٰ أين يقصد وماذا يريد، وذلك كله واضح في كلامها وضوح الشمس، فإذا جلس في مجلس شيخه، فعليه أن لا ينشغل بغير الفائدة، ثم هي تجلي له حقيقة تلك الفائدة فتقول: اذهب إلىٰ ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه.

إنها تطالبه أن يضع نصب عينه أن هدفه من مجلس شيخه أمران: العلم، والأدب. فينبغي أن يحرص عليهما تمام الحرص، ويهتم بما يجعله يحصل ذلك تمام التحصيل؛ من تبكير، واقتراب، وفراغ بال، وإنصات، وانتباه ويقظة، وأن يسجل عن شيخه معارفه ومعلوماته، ويدون عنه كلامه وحاله، وألا ينشغل بشيء في مجلسه عن هدفيه هذين لأي سبب من الأسباب، إلىٰ آخر ما يلزم لذلك التحصيل من أدوات.

ثم هي تنبهه إلىٰ أن هذين الأمرين المقصودين –العلم والأدب– ليسَا

---

(١) انظر: «مالك بن أنس» (٢٦-٢٧) لعبد الغني الدقر، بتصرف.

(٢) انظر: «مالك: حياته وعصره آراؤه وفقهه» (٢٧-٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢).

سواء، فأحدهما يتقدم علىٰ صاحبه ويشرف عليه وينبل، وهو الأدب بلا ريب، لأنه الغاية والثمرة المرجوة من العلم، فإذا كان من المقرر علىٰ مالك أن يحصل علم الشيخ من خلال لفظه، فعليه أن يعتني أكثر من ذلك بتحصيل أدب الشيخ من خلال لحظه، فلأجل الأدب يطلب العلم.

ووصية أم مالك بعد ذلك كله تحتمل من الفوائد ما لا يخفىٰ علىٰ متأمل أعطاها أذنًا صاغية وقلبًا واعيًا.

ووصية الأولاد ونصحهم مما ينبغي أن يكون محل عناية الأم المؤمنة، وتحرص علىٰ إرشادهم في سيرهم، وأن تتجهز لذلك بالعلم والتخطيط والإفادة من الخبرات المتميزة في ذلك، مع الاستعانة بالله في تحقيق هذا المطلوب.

ذلك لمن أرادت أن تكون شيئًا مذكورًا، وأن ترث غدًا جنة ونعيمًا مقيمًا، فتؤدي حق ربها نحو أمتها في ولدها وفي أسرتها.

لقد أدركت مالكًا رحمه الله في أيام الطلب شدائد، ووقفت دون غايته عقبات وعراقيل، منها الحاجة والفقر لضيق ذات اليد، وأمام هذا الضنك هل وقفت أم مالك عاجزة؟ كلا، لقد كانت تساند مالكا بكل شيء، حتىٰ لقد اضطر إلىٰ بيع قوام داره، فما أبت ولا مانعت، وتم ذلك فعلاً، قال ابن القاسم: أفضىٰ بمالك طلب العلم إلىٰ أن نقض سقف بيته، فباع خشبه[1].

ومالك يومئذ متوفر علىٰ الطلب يغشىٰ المجالس ليل نهار، إن شئت رأيته عند ابن هرمز يأخذ عنه اختلاف الناس، والرد علىٰ أهل الأهواء، ويقبس من هديه وسمته، وقد مكث عنده سبع سنين في ذلك، حتىٰ قال ابن هرمز يوما لجاريته: من بالباب؟، فلم تر إلا مالكا، فرجعت فقالت: ما ثم إلا ذاك الأشقر، فقال: ادعيه، فذلك عالم الناس. وكان مالك قد اتخذ تبانا محشوا للجلوس علىٰ باب ابن

(١) انظر: «الديباج المذهب» (٦٢).

هرمز، يتقي به برد حجر هناك. وكان يقول: وكنت آتي ابن هرمز بكرة، فما أخرج من بيته حتىٰ الليل(١).

وكان ملازمًا لنافع مولىٰ ابن عمر، يأتيه نصف النهار وما تظله الشجرة من الشمس، يتحين خروجه، فإذا خرج يدعه ساعة كأنه لم يره، ثم يتعرض له، فيسلم عليه ويدعه، حتىٰ إذا دخل يقول له مالك: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبه نافع، ثم يحبس عنه مالك بعد هذا القدر من الأسئلة، فقد كان في نافع حدة(٢). يتحايل مالك بهذه الحيل، ليحصل علم شيخه من غير أن يثير حفيظته.

وكان يلازم مجلس ربيعة أو ابن شهاب الزهري الذي لازمه مالك حتىٰ ظن أقرب الناس إلىٰ الزهري أنه مملوكه ورقيقه، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يومٌ يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلىٰ حتىٰ جلست علىٰ بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من في الباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك، قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلىٰ منزلك! قلت: لا، قال: هل أكلت شيئًا، قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني، قال لي: هات، فأخرجت ألواحي، فحدثني بأربعين حديثًا، فقلت: زدني، قال: حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجبذ الألواح من يدي، ثم قال: حدث، فحدثته بها، فردها إلي وقال: قم، فأنت من أوعية العلم(٣).

لقد كان بإمكان الأم الكبيرة الكريمة أن تطلب إلىٰ مالك الانقطاع عن العلم، فقد تكلف في سبيله فوق الطاقة، أو لعلها تطلب إليه أن ينقطع لفترة من الزمان قصيرة يستطيع أن يسد بالعمل أثناءها خلته ويقضي حاجته ويتنفس نفسًا

(١) انظر: «المدارك» (١/ ١٢٠)، و«الطبقات الكبرىٰ» (٥/ ٤٦٦).
(٢) انظر: «الديباج المذهب» (١١٧).
(٣) انظر: «المدارك» (١/ ١٢٢).

يستطيع به أن يكمل غايته ويتم مسيرته!

لكنها لم تفعل، لم تفعل ولو اقتضىٰ الأمر بيع سقف البيت أو حوائطه، أو بيع البيت كله، كما فعلت أم تلميذه الشافعي.

لقد فرَّغت ولدها ليجمع علم الناس جميعا، فاجتمع له، وصارت الإمامة إليه، وضرب الناس آباط المطي إليه من كل مكان في الدنيا، يتمنون عليه بذل بعض هذا العلم لهم، لقد كان إمام الناس بعد عمر بن الخطاب زيد بن ثابت، وبعد زيدٍ عبد الله بن عمر، وأخذ عن زيد واحد وعشرون رجلاً، ثم صار علم هؤلاء جميعا إلىٰ ثلاثة: ابن شهاب، وبكير بن عبد الله، وأبي الزناد، وصار علم هؤلاء كلهم إلىٰ مالك بن أنس[(١)].

ولك أن تعلم بأن مالكًا استجمع الآثار وحوىٰ فقهها، وجلس للفتيا في المسجد النبوي بإذن شيوخه وهو ابن سبع عشرة سنة، وقد قال عن ذلك: ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتىٰ يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، فإن رأوه لذلك أهلا جلس، وما جلست حتىٰ شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أني موضع لذلك[(٢)].

لقد كان مالك بن أنس أحد الذين غيروا وجه العالم، وكان لأمه النصيب الأكبر في تربيته، وهي بذلك قد أسدت إلىٰ الأمة جميلا طوقت به رقاب أفرادها جميعا، إن في جانب السنة أو في جانب الفقه.

ومن العجيب أن الإمام مالك رحمه الله لم يكن في بداية أمره علىٰ طريق العلم، بل كان أبعد ما يكون عنه، فقد كان يحب أن يكون مغنيًا، و يرجع الفضل إلىٰ أمه في سلوكه طريق العلم والبعد عن طريق الانحراف والغناء هذا، وهو يحدثنا في هذا الخصوص فيقول: نشأت وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين،

(١) انظر: «المدارك» (١/ ٦٨).
(٢) انظر: «المدارك» (١/ ١٢٧).

فقالت أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلىٰ غنائه؛ فدع الغناء واطلب الفقه. فتركت المغنين، وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترىٰ[(١)].

فهذه الأم الفاضلة العاقلة لم تكذب علىٰ ولدها وتقول له: إنه قبيح الوجه؛ إذ لم يكن مالك كذلك، بل كان وسيمًا ذا شقرة، وإنما هي أرادت أن توحي إليه بما يصرفه عن عزمه، فقالت قولتها تلك اللبقة المهذبة[(٢)].

وربما انشغل في مطلع حياته عن العلم باللهو في تربية الحمام، فيسمع كلمة تقرع أذنه وتلهب قلبه فيسارع إلىٰ مجالسة العلماء ويلزم بعدها الفقهاء، وهو يذكر لنا شيئًا من ذلك فيقول: كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقىٰ أبي يوما علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: ألهتك الحمام عن طلب العلم! فغضبت، وانقطعت إلىٰ ابن هرمز سبع سنين -وفي رواية: ثماني سنين- لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كمي تمرًا، وأناوله صبيانًا، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا: مشغول[(٣)].

يعمل الحيلة حتىٰ يظفر بالشيخ أكبر قدر ممكن من الوقت، وهذا من حرصه علىٰ الطلب، وبلغ من حرصه -أيضًا- علىٰ العلم أنه كان يمشي بعد الدرس يتبع ظلال الأشجار، ليستعيد ما تلقىٰ ويستحفظه حتىٰ عرف عنه ذلك، فقد رأته أخته علىٰ هذه الحالة، فذكرته لأبيها، فقال لها: يا بنية، إنه يحفظ أحاديث رسول الله[(٤)]. وظل ذلك دأبه رحمه الله حتىٰ صار إلىٰ ما صار إليه.

بذلك ابتدأ الصبي الصغير مالك بن أنس مسيرته الطويلة في طريق العلم حتىٰ صار إماما فذا من أئمة المسلمين، فيكون أثمن عطية، وأغلىٰ هدية، من أم فاضلة، تجيد التربية وتحسن التوجيه، حتىٰ قال سفيان بن عيينة: ما نحن عند

(١) انظر: «سرح العيون» (١٨١)، و«الأئمة الأربعة» للشكعة (٦، ٧).
(٢) انظر: «الأئمة الأربعة» للشكعة ص٧.
(٣) انظر: «المدارك» (١/ ١٢٠).
(٤) انظر: «تخريج أحاديث المدونة» (٦٢)، للطاهر محمد الدرديري.

مالك! إنما كنا نتبع آثار مالك، وننظر الشيخ إذا كتب عنه مالك كتبنا عنه، وما أرىٰ المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك بن أنس[(١)].

وقال الشافعي: إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به، وإذا جاء الخبر فمالك النجم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك[(٢)].

وقال أحمد بن حنبل: مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه، ومن مثل مالك! متبع لآثار من مضىٰ مع عقل وأدب[(٣)].

ولئن كنا قد رأينا في الإمام مالك آثار تربية أمه له صغيرًا من رعاية حسن هندامه في الجلوس لمجلس العلم، وتوقيره للعلم وأهله، وتجمله له وتطيبه لأجله، وحفظه لجناب أهل العلم، فيمكننا أن نلمس في صفاته العظيمة الأخرىٰ بعض آثار هذه الأم الكريمة، وقد كان الإمام قوي الحفظ، عظيم الصبر، شديد الذكاء قوي الفراسة، عظيم المهابة والوقار.

رحم الله مالكًا وأمه، وبلغنا علىٰ طريقهما آمالنا في أمهات وأولاد المسلمين.

❁❁❁

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٧٣).
(٢) انظر: «مالك: حياته وعصره» (٨٨)، و«منازل الأئمة الأربعة» (١٧٣).
(٣) انظر: «مالك: حياته وعصره» (٨٨).

(٧)
أم الإمام الشافعي
رحمهما الله تعالى

لا يخفىٰ فضل الإمام الذي تتناوله السطور التالية بالحديث؛ فقد كان رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، كما أخبر بذلك تلميذه الأثير العالم الموسوعي أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ(١).

وكيف يخفىٰ وهو الحجة في العلم؟ وما من صاحب فن إلا ويعرف له قدره، فهو حجة في التفسير والحديث وعلومهما، حجة في الفقه والأصول وسائر العلوم الشرعية، حجة في اللغة: أدبًا ونحوا وبلاغة وشعرًا وغيرها، حجة في سائر العلوم التي ظهرت في عصره، كما شهد بذلك تلميذه العالم الرحالة إسحاق بن راهويه، وقال: ما ظننت أن الله خلق مثل هذا، والله لم تر عيناي مثله(٢).

هذا الإمام هو محمد بن إدريس الشافعي الذي لا تخفىٰ مناقبه، ولا تغيب فضائله.

وقد شاء الله أن ينشأ الشافعي يتيمًا، فلم تمض علىٰ ولادته غير سنتين حتىٰ توفي أبوه، وبقي في كفالة أمه، التي ما انفكت تسعىٰ جاهدة في تربيته وتعليمه بهمة ترىٰ كبريات الأمور صغارًا، وقد نذرت الأم العاقلة ابنها للعلم تجوب به البلدان، وتقدمه إلىٰ الشيوخ، وتلتمس له مكانًا في الحلقات، حتىٰ صار الشافعي هو الشافعي الذي ملأ طباق الدنيا علمًا.

ولد الشافعي في غزة من عسقلان، وذلك بأرض الشام، وكان هذا في عام ١٥٠هـ(٣).

---

(١) انظر: «منازل الأئمة الأربعة»، ص ٢٢٢.
(٢) انظر: «آداب الشافعي ومناقبه»، ص ٣١.
(٣) انظر: «توالي التأسيس» (٥١ - ٥٢)، و«منازل الأئمة الأربعة»، ص ٢٠١.

وكانت أمه من الأزد -من أشهر قبائل اليمن، وقد رحل كثير منهم إلىٰ عسقلان لطلب الرزق، وقد تواجدوا فيها بكثرة-، وقد تزوجها والد الإمام الشافعي وهو في غربة من بلاده بلاد الحجاز، ولم تنجب له إلا محمدًا، وتوفي زوجها عنها وهي بين أهلها، فلما بلغ عمُر الإمام سنتان قالت أمه: إن تركته بين اليمنيين ضاع لسانه ونسبه، لكنني أحتسب عند الله وأرتحل إلىٰ بلده حتىٰ يحفظ لسانه ويثبت نسبه، فارتحلت به من عسقلان إلىٰ مكة، والطريق مسافتها طويلة، ومليئة بالأخطار، مع فقر حالها، ولما وصلت مكة وكبر الشافعي قليلا؛ وكان من عادة قريش ابتعاث أبنائهم إلىٰ البادية، ليتعلموا الفروسية والرماية وعادات العرب؛ من كرم وشجاعة وأدب وغير ذلك، فقد أخرجت أم الشافعي ابنها إلىٰ قبيلة هذيل، حتىٰ يحفظ العربية بلسانها الصحيح، وينشأ علىٰ مكارم الأخلاق ومعالي الأمور وحسن السجايا، ويتعلم الشعر العربي، وكانت تتلمس وتسأل عن العلماء، وتبعث بابنها إليهم حتىٰ يخالطهم ويأخذ من أدبهم ومن علومهم، والأدب إذا اكتسب قبل العلم؛ كان ثمرته ومردوده علىٰ المتعلم عظيمًا، كما أثمر ذلك في الإمام الشافعي.

وثمة رؤيا رأتها أمه أثناء حملها به -فيما يذكرون- تبشر بمستقبل له في مكة، فلعل ذلك -إن صح- يكون سببًا ثالثا[(١)].

وقد ألزمته أمه حفظ القرآن الكريم، فأتمه وهو ابن سبع سنين، ثم أقبل علىٰ معين السنة ينهل منها، فحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ثم أخذ يطلب العلم في مكة، حتىٰ أذن له بالفتيا وهو دون عشرين سنة[(٢)].

ذلك شيء مما ينوه بفضل تلك الأم العظيمة، عرفت الطريق الصحيحة، ووضعت ابنها عليها، وألزمته سلوكها، وقد دلها علىٰ ذلك فضل عقل لديها

---

(١) انظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٦).

(٢) انظر: «آداب الشافعي ومناقبه»، ص ٣١.

وحكمة، ولعلها كانت ألمت بشيء من العلم الذي لم يكن نساء ذلك الزمان يخلون منه، ويؤيد ذلك ما ذكر من أنها شهدت عند قاضي مكة في قضية هي وامرأة أخرىٰ، فأراد القاضي أن يفرق بينهما - امتحانًا - فقالت له أم الشافعي: ليس لك ذلك؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢]. فسكت الحاكم[(١)]، وهذا يدل علىٰ فضل عقل وعلم.

قال التاج السبكي بعد نقل هذه الحكاية: وهذا فرع حسن، واستنباط جيد، ومنزع غريب، والمعروف في مذهب ولدها رضي الله تعالىٰ عنه إطلاق القول بأن الحاكم إذا ارتاب بالشهود استحب له التفريق بينهم.

وكلامها رضي الله تعالىٰ عنها صريح في استثناء النساء؛ للمنزع الذي ذكرته، ولا بأس به، قال: وكانت أم الشافعي باتفاق النقلة من القانتات العابدات، ومن أذكىٰ الخلق فطرة، ثم ذكر الحكاية[(٢)].

وقد نشأ الشافعي رحمه الله فقيرًا، حتىٰ إنه حفظ القرآن في الكتاب لا يعطي معلمه أجرًا علىٰ تحفيظه، فاكتفىٰ منه المعلم بعمل العريف؛ ينوب عن المعلم علىٰ الصبيان إذا قام لغداء أو راحة أو نحوهمًا، وبعد ذلك لما جلس في حلق أهل العلم كان يذهب إلىٰ ديوان الإمارة يستوهب الموظفين الأوراق التي هم في غنىٰ عنها؛ ليكتب علىٰ ظهورها ما يتلقاه في حلقات العلم من دروس.

قال الحميدي: قال محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كنت يتيما في حجر أمي، فدفعتني في الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أن أشتري به قراطيس قط، فكنت إذا رأيت عظما يلوح آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ

(١) انظر: «إعلاء السنن» (١٥/ ٣٠٨).

(٢) انظر: «الطبقات» (١/ ٢٨٥)، وذكرها الحافظ في الفتح -أيضًا- عن الشافعي عن أمه (٥/ ١٩٦).

طرحته في جرة كانت لنا قديمة، قال: ثم قدم وال على اليمن، فكلمه لي بعض القرشيين أن أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أتحمل به، فرهنت دارها بستة عشر دينارًا، فأعطتني، فتحملت بها معه، فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل فحمدت فيه، فزادني عملا فحمدت فيه، فزادني عملا، وقدم العمار مكة في رجب فأثنوا علي، فطار لي بذلك ذكر، فقدمت من اليمن، فلقيت ابن أبي يحيى، فسلمت عليه، فوبخني، وقال: تجالسونا وتصنعون وتصنعون، فإذا شرع لأحدكم شيء دخل فيه، أو نحو هذا من الكلام، قال: فتركته، ثم لقيت سفيان بن عيينة، فسلمت عليه، فرحب بي، وقال: قد بلغتنا ولايتك، فما أحسن ما انتشر عنك، وما أديت كل الذي لله عليك، فلا تعد، قال: فكانت موعظة سفيان إياي أبلغ مما صنع بي ابن أبي يحيى[(١)].

لله ما أعظم جهاد هذه الأم الكريمة، إذ تصر على تعليم ولدها مع فقره، ثم ترهن له دارها حتى يضرب في آفاق الأرض مرتحلا.

وقد ساعدتها نجابة الشافعي في تخفيف بعض الأعباء المالية، كما قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت أنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية، فأحفظها أنا، ولقد كنت - ويكتبون أئمتهم -يعني ألواحهم وكتبهم- فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم - قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئًا[(٢)].

لقد اجتمعت للشافعي إذا ثلاثة من أسباب العلو:

-النسب الشريف الذي يجعله يرمق المعالي، ويسعى إليها، ويترفع عن سفاسف الأمور.

-اليتم الذي يجعله عصاميًّا، يعتمد على الله، ثم على نفسه، ويؤسس بنفسه

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤١٣)، و«آداب الشافعي ومناقبه»، ص ٢١.
(٢) انظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٣٩٥).

لمستقبله، لا ينتظر أبًا ولا جدًّا.

-الفقر الذي يدفع بهمة المرء العزيز نفسًا إلىٰ الخروج منه، والتمسك بأسباب ذلك، وأحدها العلم والفروسية، وهما الأمران اللذان أجادهما الشافعي، حتىٰ إنه فاق فيهما أقرانه جميعا.

وهذه الثلاثة مجتمعة – مع صدق طوية، وعزيمة قوية – هي التي جعلت من الشافعي ذلك العلم الأشم الذي سمعت به الدنيا، فما ضره انتفاء الشكليات مع توفر الجوهر، بل إنه ليوظف هذه الشكليات التي تيئس آخرين لتحقيق قصدهم وصقل عزمهم، وهو صاحب الأبيات الحكيمة الذائعة في هذا المعنىٰ:

علـي ثيـاب لـو يبـاع جميعهـا — بفلس لكـان الفلس منهن أكثرَا
وفـيهن نفـس لـو تقـاس بمثلهـا — نفوس الورىٰ كانت أعز وأكبرَا
ما ضر نصل السيف إخلاق غمده — إذا كان عضبا حيث وجهته برىٰ

في هذه التربية المثلىٰ نشأت الشافعي أمه كأحسن ما يكون، فرحمها الله من أم ووالدة، لقد قصرت حياتها عليه ولم تتزوج، ووضعت لتربيته طريقًا واضحة لم تختلط بغيرها، وواصلت السير فيها بعزيمة لا تكِل، واختارت له من عظيم الأمور أعلاها، ومن المنازل الكريمة أفضلها وأسماها، وقصدت به منابع العلم في بحورها، حتىٰ شرب وشبع، وخرج الري منه يفيض علىٰ العالمين، ويملأ طباق ما بين الخافقين.

ظلت أم الشافعي رحمهما الله تمده طوال طريقه بنصائحها المفيدة العاقلة، وترشده إلىٰ أقوم الطرق في مشواره بما أوتيت من عقل وحكمة وفهم حسن.

وظل الشافعي يقبس من نبلها وأدبها وحسن فهمها إلىٰ أن بلغ ما بلغ، فلله درهما من مفيد ومستفيد، ومن مؤدب ومتأدب!

تذكر بعض الكتب أم الشافعي فتنسبها هي الأخرىٰ - كأبيه - إلىٰ آل البيت الأطهار، وتعرفها بأنها هي فاطمة بنت عبدالله بـن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﵁، كما رواه الحاكم أبو عبدالله الحافظ(١)، لكن الجمل في حاشيته وصف هذا القول بالشذوذ، ويرجح القول الثاني أنها كانت أزدية يمنية، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية، وهذا هو القول الصحيح المشهور الذي انعقد عليه الإجماع؛ إذ كل الروايات التي رويت عن الشافعي في نسبه تذكر علىٰ لسانه أن أمه من الأزد(٢).

كانت أم الشافعي علىٰ قيد الحياة وقت رحلة الشافعي إلىٰ اليمـن، ليلي بعض الأعمال عليها، وكان يتردد علىٰ المدينة بين الفينة والأخرىٰ، وإبان ذلك كانت محنته حين اتهم بأنه يناصر العلويين علىٰ بني العباس، وهذه المحنة كانت سنة ١٨٤ هـ، وعمر الشافعي في أواسط عقده الثالث، له من العمر أربع وثلاثون سنة، ولم أقف علىٰ ما يفيد حياتها بعد هذا الوقت، أجزل الله مثوبتها.

فهذه هي الأم العظيمة، التي أوقفت نفسها علىٰ ابنها، فعزفت عن الرجال وعن التنعم والترف، ورأت أن ابنها هو رأس المال الذي تريد القربة به إلىٰ الله قد نفعت الإسلام والمسلمين علىٰ مدىٰ العصور والأزمان، نفعا باقيًا خالدًا، يصب في حظيرة المجد وصحائفه، وستكسب -بإذن الله- الحسنات التي سينالها كل من استفاد من علم الشافعي رحمه الله.

❁❁❁

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٧٥).
(٢) انظر: «حاشية الجمل» (١/ ٢٣)، و«منازل الأئمة الأربعة» (٢٠١)، وللتفصيل راجع: «الدر النفيس في بيان نسب إمام الأئمة محمد بن إدريس الشافعي»؛ للحموي.

(٨)
أم الإمام أحمد بن حنبل
رحمهما الله تعالى

حفظتني أمي القرآن وأنا ابن عشر سنين، وكانت توقظني قبل صلاة الفجر وتحمي لي ماء الوضوء في ليالي بغداد الباردة، وتلبسني ملابسي، ثم تتخمر وتتغطىٰ بحجابها، وتذهب معي إلىٰ المسجد؛ لبعد بيتنا عن المسجد ولظلمة الطريق.

هكذا يتحدث الإمام أحمد بن حنبل عن أمه التي غرست فيه غراس الإيمان منذ الصغر، ليصبح فيما بعد إمامًا لأهل السنة والجماعة؛ وليجمع بين علوم الشريعة -وعلىٰ رأسها الفقه والحديث- وبين الزهد والورع، وليثبت بالتجربة العملية أن الزهاد والعباد لا يرتقون مراتب الفضل إلا بعد أن يزينوا زهدهم بالعلم والفقه؛ حتىٰ يعبدوا الله عز وجل علىٰ بصيرة، وبما شرع رسوله الكريم، ولا يحدثوا في الدين بدعًا.

إنها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك، مات زوجها محمد بن حنبل شابًّا في الثلاثين، وهي كانت دون الثلاثين، ورغم ذلك لم ترض بالزواج، وإنما أرادت أن تملأ علىٰ ولدها حياته حنانا وأنسا، فأهدت -بتوفيق الله- إلىٰ دنيا المؤمنين وعالم الموحدين إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

ولد أحمد بن حنبل يتيمًا، حيث توفي أبوه وهو في بطن أمه، وعندما يتحدث عن أمه بهذه الطريقة، فهو يقر بفضلها، ويفتخر بأمه التي تولت تربيته وتنشئته، حتىٰ صنعت منه رجلاً عظيمًا.

وعندما بلغ السبعين من العمر لم تنسه السنون بره بأمه وبأرحامها وأقاربها، بل لم يتوقف عن ثنائه عليها، ويحدث الناس عن أمه فيقول: رحم الله أمي، كلما تهيأت لصلاة الفجر تذكرتها، فقد كانت تجهز لي ثيابي ووضوئي، وتقف علىٰ

الباب حتىٰ ترىٰ الخيالة -شرطة الأمن-، فإذا رأت الخيالة اطمأنت، وأطلقتني، ودفعت إلي فطوري، وأوصتني بالدرس بعد الصلاة.

ومما ينسب إلىٰ الإمام أحمد بن حنبل قوله: بر الوالدين كفارة الكبائر. وقد عاش حياته يترجم هذا القول إلىٰ واقع من شدة بره بأمه وحبه لها.

وكانت والدة الإمام رحمها الله صوامة قوامة، وقد اعتادت علىٰ إيقاظ ابنها لصلاة الليل قبل الفجر ليصليا سويا وردهما من الليل.

ولما بلغ الإمام عامه السادس عشر، أوصته أمه بالسفر لطلب علم الحديث باعتباره هجرة في سبيل الله، وعلىٰ عكس غالبية الأمهات؛ لم تتمسك الأم بابنها الوحيد، ولم تثبط عزيمته، بل سلمت الأمر لله، وأخذت توصيه بالإخلاص في الطلب، وبتقوىٰ الله عز وجل.

وهكذا دائمًا كان دور الأم في تنشئة العلماء؛ من أجل النهوض بالأمة، والعمل علىٰ تقدمها، ونفع المسلمين ورفعتهم.

ومما يروىٰ عنهما رحمهما الله:

كان محمد بن حنبل -والد الإمام أحمد- أحد قادة الجيش في مدينة مرو، فقدم إلىٰ بغداد، وكان شابًّا حول الثلاثين، وكان تزوج من صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك، كما قال أبو عبد الله ابن بطة: كانت أم أبي عبد الله أحمد بن حنبل شيبانية، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني من بني عامر، كان أبوه نزل بهم وتزوج بها، وكان جدها عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني من وجوه بني شيبان، وكان ينزل عليه قبائل العرب، فيضيفهم[(١)].

وقد توفي محمد وله من العمر بضع وثلاثون سنة، وترك زوجه وكانت سنها دون سنه[(٢)]، وكان أحمد إذ ذاك صغيرًا لا يدرك شيئًا، فقد سئل عن أبيه وجده: هل

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، ص ٢١.

(٢) انظر: «الأئمة الأربعة»، ص ١٤-١٥.

رآهما؟ فنفىٰ ذلك، كم كانت سنه حينئذ؟ يرجح البعض أنه كان يبلغ ثلاث سنوات.

ويحدثنا أحمد عن ذلك فيقول: وجيء بي حملا من مرو، وتوفي أبي محمد ابن حنبل وله ثلاثون سنة، فوليتني أمي[(١)].

وكانت أم أحمد -رحمة الله عليها- حريصة علىٰ تعليمه العلم رغم ضيق ذات يدها، فكانت ترسله إلىٰ الكتّاب، ليتعلم الخط ويحفظ القرآن.

وكانت آثار النجابة والفضل والصلاح تبدو في أحمد من صغره، فقد روىٰ ابن الجوزي بإسناده عن أبي عفيف قال: كان أحمد في الكُتَّاب معنا وهو غُليم نعرف فضله، وكان الخليفة ينزل بالرقة ومعه الجند، فيكتب أولئك الجند إلىٰ نسائهم بأحوالهم، فلا يرضىٰ النساء بغير أحمد يقرأ لهن ما كتب به أزواجهن إليهن، فكن يبعثن إلىٰ معلم المكتب: ابعث إلينا بأحمد بن حنبل، وذلك ليقرأ لهم، وليكتب لهم جواب كتبهم، فربما أملوا عليه الشيء من المنكر، فلا يكتبه لهم.

وقال أبو سراج ابن خزيمة: فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ينظر إليهن، فقال أبي -وذكره-، فجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته.

وقال: أنا أنفق علىٰ ولدي، وأجيئهم بالمؤدبين علىٰ أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظر كيف يخرج؟ وجعل يعجب[(٢)].

لقد بلغ أحمد في الأدب -بفضل الله، ثم بتربية أمه- هذا المبلغ الذي يحسده عليه الناس؛ إذ جمع منه ما لم يجمعه صغير في كنف والديه، وكان وهو صبي محل ثقة جميع من يعرفونه من الرجال والنساء.

غرست صفية في ولدها أحمد محبة العلم، حتىٰ إن هذا الغراس ليقوىٰ في نفسه ويشتد فيغلب عاطفتها هي، وهي من غرسته!

ذكر الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع عن تبكيره

---

(١) انظر: «مقدمة العلل ومعرفة الرجال» لأحمد، رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١).

(٢) انظر: «مناقب أحمد بن حنبل»، لابن الجوزي، ص ٣١.

في طلب العلم، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمهم الله قال: سمعت أبي يقول: كنت ربما أردت البكور إلىٰ الحديث، فتأخذ أمي ثيابي وتقول: حتىٰ يؤذن الناس، حتىٰ يصبحوا، وكنت ربما بكرت إلىٰ مجلس أبي بكر ابن عياش وغيره[(١)].

لقد كانت أمه تشجعه علىٰ طلب العلم والسعي إليه، لكنها إذا رأته اشتد في أخذ نفسه بما يرهقها رشدته ودعته إلىٰ الرفق بنفسه.

لقد بذلت أم أحمد الكثير من أجله، وقدمت لابنها راضية كل ما يوفر له كامل الراحة لأجل أن يطلب العلم ويتفرغ له، وإذا عرفنا أن الإمام أحمد لم يتزوج قبل سن الأربعين أدركنا أن السبب في ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام[(٢)].

وكان والد أحمد قد ترك له بيتًا في بغداد يسكنه، وبيتًا آخر يغل غلة ضئيلة، فعاش رحمه الله فقرًا شديدًا في أول حياته، وعليه نشأ، ومنه تعلم، وبه مع العلم والفهم تزهد.

ولئن ولد أستاذه الشافعي بغزة، ونشأ بمكة، فقد ولد أحمد ببغداد، وبها نشأ، حتىٰ إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغة اتجه إلىٰ الديوان ليتمرن علىٰ التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلىٰ الكتاب، ثم أختلف إلىٰ الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة[(٣)].

وبعد ذلك ابتدأ الإمام أحمد في طلب الحديث من شيوخ بغداد، فكان أول من كتب عنه الحديث: أبو يوسف، قال: وطلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة، ومات هشيم وأنا ابن عشرين سنة، وأول سماعي من هشيم سنة تسع وتسعين ومائة.

---

(١) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٥١).
(٢) انظر: «الأئمة الأربعة»، ص ١٤-١٥.
(٣) انظر: «مناقب أحمد بن حنبل»، لابن الجوزي (٣١).

ثم رحل أحمد في طلب الحديث إلىٰ الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام، والجزيرة، وكتب عن علماء كل بلد[(١)].

وهكذا كانت الأم العظيمة تحثه علىٰ العلم، وتساعده عليه، رغم فقرهم، تتاجر به مع ربها عز وجل، وكان هو ﷺ يدرك ما بهم من حال، فيعمل جهده علىٰ توفير ما يقدر علىٰ توفيره من مال، ولو أداه ذلك إلىٰ مضاعفة الجهد وضنىٰ الجسم. قال عبد الله بن أحمد: خرج أبي إلىٰ طوس ماشيًا، وخرج إلىٰ اليمن ماشيًا ليلقىٰ عبد الرزاق الصنعاني، وقال أبي: ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئًا إلا المجلس الأول، وذلك أنا دخلنا بالليل، فوجدناه في موضع جالسًا، فأملىٰ علينا سبعين حديثا، ثم التفت إلىٰ القوم فقال: لولا هذا ما حدثتكم، يعني أبي[(٢)]. ولعله لمس في أحمد أدبًا وسمتًا حملاه علىٰ هذا القول والفعل، والله أعلم.

وربما كانت تمنع أحمد قلة ذات اليد هذه من الرحلة، ويصده ضيق المعيشة عنها مع رغبته الشديدة فيها، قال رحمه الله: ولو كان عندي خمسون درهما كنت خرجت إلىٰ جرير بن عبد الحميد إلىٰ الري، فخرج بعض أصحابنا، ولم يمكني الخروج، لأنه لم يكن عندي. وقال – مرة -: لو كانت عندي نفقة لرحلت إلىٰ يحيىٰ بن يحيىٰ، يعني الأندلسي، بالأندلس[(٣)].

وقد لقي الإمام في رحلاته تلك عناء كثيرًا، فلم تكن الطرق معبدة، ولا المراكب مهيأة، وإن كانت، فخلو اليد من الدراهم يحول دون الركوب علىٰ الرواحل والمراكب، ثم إنه طبع علىٰ عزة النفس، فكان لا يقبل من أحد هبة ولا عطية، ويترفع عن الجوائز والأعطيات، ويرضىٰ لنفسه بالكسب الحلال بعرق الجبين، فكان يكري نفسه مع الجمالين.

(١) انظر: «مقدمة العلل ومعرفة الرجال»، لأحمد، رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١).
(٢) انظر: «تاريخ مدينة دمشق» (٣٦/ ١٧٣، ١٧٤).
(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥١٤).

روىٰ أبو نعيم في الحلية عن إسحاق بن راهويه قال: لما خرج أحمد بن حنبل إلىٰ عبد الرزاق، انقطعت به النفقة، فأكرىٰ نفسه من الجمالين إلىٰ أن وافىٰ صنعاء، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المؤاساة، فلم يقبل من أحد شيئًا.

وكذا روىٰ بإسناده عن عبد بن حميد قال: سمعت عبد الرزاق يقول: قدم علينا أحمد بن حنبل ههنا، فقام سنتين إلا شيئًا، فقلت له: يا أبا عبد الله، خذ هذا الشيء، فانتفع به، فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب، وأرانا عبد الرزاق كفه ومدها فيها دنانير، قال أحمد: أنا بخير، ولم يقبل مني[(١)].

وروىٰ أيضًا عن علي بن الجهم قال: كان لنا جار، فأخرج إلينا كتابًا، فقال: أتعرفون، هذا الخط؟ قلنا: نعم، هذا خط أحمد بن حنبل، فقلنا له: كيف كتب ذلك؟ قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة، فقصدنا أحمد بن حنبل أيامًا، فلم نره، ثم جئنا إليه، لنسأل عنه، فقال لنا أهل الدار التي هو فيها: هو في ذلك البيت، فجئنا إليه والباب مردود عليه، وإذا عليه خلقان، فقلنا له، يا أبا عبد الله، ما خبرك؟ لم نرك منذ أيام، فقال: سُرقت ثيابي، فقلت له: معي دنانير، فإن شئت خذ قرضًا، وإن شئت صلة، فأبىٰ أن يفعل، فقلت: تكتب لي بأخذه؟ قال: نعم، فأخرجت دينارًا، فأبىٰ أن يأخذه، وقال: اشتر لي ثوبًا واقطعه بنصفين، فأومىٰ أنه يأتزر بنصف، ويرتدي بالنصف الآخر، وقال: جئني ببقيته، ففعلت، وجئت بورق وكاغد، فكتب لي، فهذا خطه[(٢)].

وبهذه النفس الأبية وبكد العيش وضنك المعيشة متوكلاً علىٰ الله، خرج أحمد في سبيله يجوب البراري والقفار، يفترش الأرض الجرداء، ويرتدي برداء السماء، يتوسد باللبن والأحجار، يلتقي المشايخ، ويتلقىٰ منهم الحديث، حتىٰ صار إمامًا يُقتدىٰ به، وحجة يشار إليه بالبنان، ويُرحل إليه للأخذ والسماع[(٣)].

(١) انظر: «تذهيب تهذيب الكمال» (١/ ١٩٢).
(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٩/ ١٧٩).
(٣) انظر: «مقدمة كتاب العلل ومعرفة الرجال»، لأحمد، رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١).

وقد حصلت له بهذه الرحلات الكثيرة ذخيرة كبيرة ومجموعة كثيرة من الأحاديث والآثار، فقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته، فأخذت عليه الأبواب. وقد ذكر ذلك الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء، ثم قال: فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدون في ذلك المكرر والأثر وفتوىٰ التابعي وما فسر، وإلا فالمتون المرفوعات القوية لا تبلغ عشر معشار ذلك[(١)].

وذكر الذهبي -أيضًا- عن أبي زرعة قال: حزرت كتب أحمد يوم مات، فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ما كان علىٰ ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، كل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب[(٢)].

وقد كان أحمد رحمه الله بارًّا بأمه كل البر، عارفا بفضلها، حافظًا لجميلها، ويكفي أن نقرأ ما ذكره ابن الجوزي عن صالح أنه سمع أباه أحمد يقول: خرجت إلىٰ الكوفة، فكنت أبيت وتحت رأسي لبنة، فحممت -أي: أصابتني الحمىٰ-، فرجعت إلىٰ أمي، ولم أكن استأذنتها[(٣)].

إنه ليعتقد -لشدة بره بها وحرصه علىٰ رضائها- أن الحمىٰ أصابته لعدم استئذانه منها، فكأنه لم يحصل بركتها لما خرج، ولهذا عاد أدراجه إليها يستأذنها ويستشفي بدعواتها وصلتها.

فحسب هذه الأم رحمة الله عليها ذلك الابن البار، وذلك الإمام العظيم، وحسبها أنها أهدت إلي دنيا المؤمنين وعالم الموحدين إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله، ورضي الله عنها وعن ولدها، وسلام عليهما في الآخرين.

❁❁❁

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٨٧).
(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧).
(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٨٥).

(٩)
أم الإمام سفيان الثوري
رحمهما الله تعالى

تتقدم الكلمات نحو أخبار هذه الأم العظيمة وولدها في تواضع وحياء شديدين، ذلك أن ظلال ورعهم وزهدهم تلقىٰ علىٰ المتأمل في حياتهما، فتكسوه رهبة وتعلوه هيبة يليقان بالمقام الذي تبوءاه خلال التاريخ.

كان سفيان فقيهًا، ومحدثًا صاحب سنة، وقد بلغ القمة في هذين المجالين كليهما، فقد صار رأس مذهب فقهي، عرف بالمذهب الثوري أو مذهب سفيان، وكان له أصحاب وأتباع يتمذهبون به ويرون رأيه، وظل ذلك مشهورًا إلىٰ قريب من القرن الثامن الهجري، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما الأئمة المذكورون، فمن سادات أئمة الاسلام، فإن الثوري إمام أهل العراق، وهو عند أكثرهم أجل من أقرانه؛ كابن أبىٰ ليلىٰ، والحسن بن صالح بن حي، وأبي حنيفة وغيره، وله مذهب باق إلىٰ اليوم بأرض خراسان[(١)].

وقد صنف العلماء كتبًا علىٰ مذهب سفيان، عرفت وتداولها الناس، واطلع عليها العلماء، وظلت متوفرة مشهورة حتىٰ عصر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالىٰ، كما يظهر من قوله في الفتح: وما حكيناه عن الثوري، حكاه أصحابه عنه في كتبهم المصنفة علىٰ مذهبه[(٢)]. وقال في موضع آخر: وكذلك نقل أصحاب سفيان مذهبه في تصانيفهم، وحكوا أن سفيان ذكر أن الناس أجمعوا علىٰ ذلك[(٣)].

هذا هو الثوري، الفقيه، صاحب المذهب، وخامس الأئمة الأربعة المجتهدين، وهو أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ، بشهادة الكبار الكرام

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٣/ ٢٢٤).
(٢) انظر: «فتح الباري»، لابن رجب (٦/ ١١٤).
(٣) انظر: «فتح الباري»، لابن رجب (٢/ ٢٨٠).

أهل الفن، فقد قال شعبة، وابن عيينة، وأبو عاصم، ويحيىٰ بن معين، وغيرهم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث[(١)]. وقال عبد الله بن المبارك: كتبت عن ألف ومئة شيخ، ما كتبت عن أفضل من سفيان[(٢)].

وليس أحد من العلماء في زمان سفيان أجل مرتبة، أو أعظم منزلة، أو أكثر تلامذة، أو أفضل طلابًا منه، رحمه الله.

وسفيان مفسر أيضًا، فقد عرف رحمه الله بالعلم بالتفسير، حتىٰ كان يقول: سلوني عن المناسك والقرآن، فإني بهما عالم[(٣)].

وقد نشر تفسير سفيان الثوري لأول مرة في الهند، بتحقيق الأستاذ امتياز علي عرشي، ثم نشرته دار الكتب العلمية بعناية لجنة من المختصين.

وبالجملة فقد قال الإمام أبو بكر الخطيب عنه: وكان إمامًا من أئمة المسلمين، وعلمًا من أعلام الدين، مُجمعًا علىٰ إمامته، بحيث يستغنىٰ عن تزكيته، مع الاتقان، والحفظ، والمعرفة، والضبط، والورع، والزهد[(٤)].

ويظهر من ترجمة سفيان أنه نشأ بين أبويه، فقد عاش أبوه إلىٰ سنة (١٢٧هـ) تقريبًا، فإذا كان سفيان قد ولد في سنة (٩٧هـ) فيكون عمره لما توفي أبوه ثلاثين سنة تقريبًا، وقد كان والده سعيد أحد محدثي الكوفة الثقات الذين حازوا مديح أئمة التعديل؛ كابن معين، وابن المديني، والعجلي، والنسائي، وغيرهم، فقد أجمعوا علىٰ توثيقه وقبول روايته في حديث رسول الله ﷺ، وقد روىٰ الحديث عن خلق كثيرين، وروىٰ عنه خلق آخرون كان منهم ابناه المبارك وسفيان[(٥)].

ويفيد الإمام الذهبي بأن سفيان طلب العلم وهو حدَث باعتناء والده

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٣٨).
(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٣٧).
(٣) انظر: «الجرح والتعديل» (٢/ ٢٢٤).
(٤) انظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢١٩).
(٥) انظر: «التهذيب» (٤/ ٨٢).

المحدث الصادق سعيد بن مسروق الثوري، ثم يقول: وكان والده من أصحاب الشعبي وخيثمة بن عبد الرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين، روىٰ له الجماعة الستة في دواوينهم، وحدث عنه أولاده: سفيان الإمام، وعمر، ومبارك، وشعبة بن الحجاج، وزائدة، وأبو الأحوص، وأبو عوانة، وعمر بن عبيد الطنافسي، وآخرون[(١)].

وهكذا استفاد سفيان من والده، وتلقىٰ العلم عنه، وروىٰ الحديث، وهو أول شيوخه ومعلميه ومربيه -الذين يذكر أن تعدادهم يفوق ست مئة شيخ-، وكانت أم سفيان صاحبة علم وفقه، وذات زهد وورع، وقد ذكرها ابن الجوزي والمناوي في الصالحات المتورعات من النساء[(٢)].

ويظهر أن البيت كله تأثر بهذين الوالدين العالمين الفاضلين، إذ شكلا رحمهما الله بيئة خصبة صالحة لإنتاج العلماء والأئمة، ومن ثم رأينا إخوة سفيان جميعا من ذوي النباهة والذكر في طريق العلم، الذكور منهم والإناث علىٰ السواء، فأخواه: المبارك وعمر كانا من أولي العلم والفضل، حملة أحاديث رسول الله ﷺ، وقد ذكرهما العلماء كابن قتيبة والمقدسي وابن حزم والحاكم والعسقلاني وغيرهم في كتبهم[(٣)].

وأخته كانت أم عمار بن محمد المحدث الذي ترجمه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ[(٤)]. وسفيان -أحد أفراد هذه الأسرة- هو سفيان.

وهكذا البيئة الصالحة الطيبة تخرج نباتها بإذن ربها، وينشأ الناشئ فيها علىٰ ما تعوده من الخير فيشب عليه ويهرم:

وينشأ ناشئ الفتيان منا علىٰ ما كان عوده أبوه

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٣٠).
(٢) انظر ترجمة الثوري في مقدمة «تفسير الثوري»، ص ٨.
(٣) انظر -مثلا-: «التهذيب» (٤/ ٤٥٢)، وترجمة الثوري في مقدمة «تفسير الثوري»، ص ٨.
(٤) انظر: «الطبقات الكبرىٰ» (٦/ ٢٥٨).

ومن نتائج هذه البيئة المبكرة ما يحمله هذا الخبر: قال يحيىٰ بن أيوب العابد: حدثنا أبو المثنىٰ قال: سمعتهم بمرو يقولون: قد جاء الثوري، قد جاء الثوري، فخرجت أنظر إليه، فإذا هو غلام قد بقل وجهه، قال الذهبي: كان ينوه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه، وحدث وهو شاب(١).

ولهذا كان الإمام أبو إسحاق السبيعي إذا رأىٰ سفيان الثوري مقبلا قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(٢) [مريم:١٢].

في هذه البيئة ولد سفيان الثوري، ونشأ وترعرع، ومنها تعلم وتفقه، وفيها تخرج وتربع، وكان لأمه العالمة الفاضلة أثر كبير في تنشئته وتوجيهه إلىٰ الطريق الصحيحة في حياته تلك، وهو يحدث بنفسه عن هذا الأثر حينما صار إمامًا، يقول: لما أردت أن أطلب العلم قلت: يا رب! إنه لابد لي من معيشة، ورأيت العلم يدرس -أي: ينسىٰ ويهجر- فكنت أفرغ نفسي لطلبه، وسألت ربي الكفاية(٣).

ويظهر لنا ذلك الخبر أن بيت سفيان كان بيتًا رقيقًا، وأن والده كان فقيرًا، وهذا واضح في آثار أخرىٰ، فقد سئل مرة: لماذا لم ترحل إلىٰ الزهري؟ فأخبر بأنه لم تكن ثمة دراهم يستعين بها علىٰ الرحلة إليه، ولهذا لم يرحل إليه، وفي خبر آخر أنه رحل إلىٰ بخارىٰ يطلب ميراث عمٍّ له كان بها فمات، وسفيان إذ ذاك ابن ثمانية عشر عامًا.

عزم سفيان علىٰ المضي في طريقه لطلب العلم، وفي قلبه العزيمة علىٰ إدراك العلم قبل أن يدرس وينسىٰ، فتفرغ له كامل التفرغ، وشد الله عزمه ذاك بوالدته، التي تكفلت بالإنفاق عليه، وقالت له: يا سفيان، اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٣٦)، وبقل وجهه وأبقل: خرجت لحيته، انظر: «مختار الصحاح» (١/ ٧٣).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٣٧).

(٣) انظر: «تاريخ الإسلام» (٤/ ٣٨٣).

ومضىٰ سفيان يتلقىٰ العلم عن شيوخه، وكانت كلمات أمه في أثره تدفعه للاستكثار من العلم والمعرفة والتعب في التحصيل، وكان حالها في نفسه أوقع وأشد من كلماتها تلك، فما أضاع لحظة أو دونها في غير فائدة، وكان يقول: لا نزال نتعلم العلم ما وجدنا من يعلمنا[١].

لكن أم سفيان إذ تبعث به إلىٰ حلق العلم آمنا علىٰ قوت يومه، مكفيا طلب رزقه، لا تبعثه ليطلب العلم الذي يكاثر به القرناء ويجاري به الخلان ويصرف به وجوه الناس إليه، لكن تبعثه ليطلب العلم الذي يكسبه عملا ويرىٰ عليه أثره، فهي إذ تقول له: اذهب فاطلب العلم حتىٰ أعولك أنا بمغزلي، تتبع ذلك بقولها أيضًا: فإذا كتبت عدة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا فلا تبتغين[٢].

إن وراء سعيه في الحلق أم تنتظر حصيلته فيما يسعىٰ له، ولعله وقت هذا الحوار كان يفكر في أول كلماتها تلك في جهد العلم، فإذا بها توجهه إلىٰ أن طلبها لا يعني الكم وإنما يعني الكيف أيضًا، فلا قيمة للكم دون كيف، فالمطلوب منه حينئذ ليس جهد العلم فقط، ولكن جهد العلم وجهد العمل، كليهما.

فإذا كتبت عدد أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة؟ فإن وجدت فاتبعه، وإلا فلا تبتغين زيادة من العلم طالما لا تجد لها زيادة في العمل، لأنها لا فائدة ترتجىٰ منها حينئذ إلا زيادة الوزر عليك في إقامة الحجة بتركك العمل.

تلك أم عالمة صالحة ورعة، ولهذا جازاها الله في غرسها وزرعها جزاء حسنا، فكانت ثماره طيبة يانعة، لا تزال تؤتي أكلها وحسناتها من يومها إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هكذا كانت الأم، فكان سفيان. وهكذا كان سعيها لهدفها ورعايتها لهذا الهدف، وتعهدها له بالمراقبة والمناصحة، ومما قالته له ذات مرة في هذه السبيل:

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٣).
(٢) انظر: «المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ»، للبيهقي (١/ ٤٢٧).

أي بني، إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترىٰ في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك.

وفي بعض روايات العلماء لمقولة أمه زيادة فائدة، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل: سمعت وكيعا يقول: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب فاطلب العلم، حتىٰ أعولك أنا بمغزلي، فإذا كتبت عدة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه، وإلا فلا تتبعني[(١)]. وإلا فلا تتبعني: يعني لا تكون مني، ولا أنا منك، ولا تنتسب إلي، وتقول: هذه أمي. ولعمر الله هذا في وقعه من الأم علىٰ ولدها شديد، ولهذا تأثر سفيان بهذه الكلمة في علمه وعمله، وبقيت دافعته حتىٰ صار العمل ديدنه وطبعه وهدفه وغايته.

وفي بعضها: أن والدة سفيان قالت له: يا بني، اطلب العلم، وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترىٰ في نفسك زيادة في الخير، فإن لم تر ذلك، فلا تتعن[(٢)]. أي: لا تتعب نفسك فيما لا نفع فيه.

وهكذا ينبغي لمن زرع زرعًا أن يجود أصله، ويتقن غرسه، ويعرف هدفه، ويتعاهده بالعناية والرعاية، لينتظر صلاح ثمرته، ويسعد بحصاد عمله، ولا يكون كمن قيل فيه:

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه ... فكيف عند حصاد الناس تدركه

رضي الله عن سفيان وأمه في الأولين والآخرين وفي يوم الدين.

❁❁❁

(١) انظر: «أدب الإملاء والاستملاء»، للسمعاني (١٠٩).
(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٣٠).

(١٠)
أم الإمام البخاري
رحمهما الله تعالى

هي أم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري؛ إمام الدنيا، وأمير المؤمنين في الحديث، وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالىٰ.

فمَن تلكم الأم التي ولدت هذا الإمام؟ لا ريب أن هذه المناقب الكبيرة التي أوتيها الابن فيها شيء من الشبه إلىٰ أبيه وأمه، أو برزت نتيجة بعض الجهد منهما، أو لهما من الأثارة في الدين والفضل ما أهلهما لأن يكون البخاري ابنا لهما وأن يكونا هما أبويه.

وكذلك كان الواقع والحقيقة، فالبيت الذي ولد فيه البخاري كان بيت علم وفضل وتربية.

كان إسماعيل -والده- من العلماء المحدثين، اشتغل بالحديث، ورحل إلىٰ البلدان في طلبه، وأثرت له رواية عن مالك بن أنس، وحماد بن زيد، كما رأىٰ عبد الله بن المبارك، وصافحه بكلتا يديه. فعن إسحاق بن أحمد بن خلف، أنه سمع البخاري يقول: سمع أبي من مالك بن أنس، ورأىٰ حماد بن زيد، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه[1].

وكان إسماعيل من المعروفين بحسن السمت والعمل بالورع، وكان يعمل في التجارة، واستعمل فيها علمه وورعه، فخلص ماله وطاب.

ولد إمامنا محمد بن إسماعيل رحمه الله تعالىٰ سنة (١٩٤هـ)، في مدينة بخارىٰ.

ولم تطل الحياة بإسماعيل مع ابنه محمد، إذ فارق الحياة ولولده بضع سنين، ولما كان علىٰ فراش الموت دعا ابنه البخاري فقال له: لقد تركت لك ألف

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٣٩٢).

ألف درهم، لا أعلم منها درهما من حرام، ولا درهما من شبهة[١].

ولنا أن نتخيل العلم الذي حصله إسماعيل والد البخاري ليؤكد هذا التأكيد، لا علىٰ أنه لم يدخل ماله درهم حرام فحسب، بل علىٰ أنه لم يدخله درهم فيه شبهة!.

وحري بنا أيضًا أن نستلهم هذه المقولة، ونتعرف علىٰ أهميتها في ضمن أسباب تفوق البخاري رحمه الله تعالىٰ، فالمال الحلال الصافي له تأثير عظيم علىٰ الأبدان والأنفس.

ثم إن هذا المال كله كان قد رصده الوالد لتعليم أولاده العلم، وقد أُنفق هذا المال في هذه السبيل فعلا، وذلك في رحلات البخاري في البلدان، يسمع حديث رسول الله ويتعلمه.

هذا هو والد البخاري، وحقيق أن يكون لمثله ابن هذا شأنه.

ومثل هذا سنلحظه في حياة أمه العظيمة.

نشأ البخاري -إذن- يتيمًا في حجر أمه، وقد تعهدت تربيته وتعليمه، فأتم حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين.

ويكأن سنة الله في كثير من العلماء وفي العظماء أن ينشؤوا أيتامًا، بل وفي الأنبياء!

يروي المؤرخون أمرًا عجيبًا جرىٰ للبخاري رحمه الله وهو طفل صغير، فقد ذكروا أن بصره أصيب وهو صغير، فذهبت عيناه، فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل - عليه السلام -، فقال لها: يا هذه، قد رد الله علىٰ ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك.

قال أحمد بن الفضل البلخي -راوي الخبر-: فأصبحنا وقد رد الله عليه بصره[٢].

لا شك في أن حادثة كهذه تذهب بلب الحازم الحاذق من الرجال، فكيف

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» (١٨/ ٢٣٩).
(٢) انظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٧٤)، ومقدمة فتح الباري (٤٧٨).

بامرأة هي أمه، والأمهات يتفطر قلب إحداهن علىٰ ابنها إذا أصابته شجة في وجهه، فما عساها تفعل إن عميت عيناه وذهب بصره؟ وهو ما يعني أنه سيقضي حياته بأجمعها علىٰ هذه الحال؟

لكن أم البخاري -التي استحقت أن تكون أم البخاري- لم تجزع ولم تقنط، وقامت تسأل حاجتها الذي يجيب حوائج السائلين، تضرعت وابتهلت وبكت، ولزمت باب ربها تطرقه مناجاة ودعاء ونداء، حتىٰ أجاب الله دعاءها وسمع بكائها، وكأنما الأم المسكينة أخذتها سنة، أو غلبها النوم لشدة تعبها وإجهادها فنامت، فرأت في منامها البشرىٰ بمعافاة ولدها ورد الله بصره عليه، لم تره هو معافىٰ ينظر إليها فحسب، وقد كان ذلك كافيا في البشارة، لكن رأت نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول لها: يا هـذه، قد رد الله علىٰ ابنك بصره، ثم يعلل لها هذا الأمر ويبين لها سبب تلك المنحة الإلهية بقوله: لكثرة بكائك، أو قال: لكثرة دعائك.

وفي هذا إلهام لها ولغيرها بنفع الدعاء والرجاء وسماعه وإجابته، وكذا بفضل التذلل والبكاء بين يدي من عنت الوجوه لوجهه، فكل الأمور بيده وكل الشئون بأمره، والملك ملكه، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون.

فهذه كرامة في طياتها كرامات لأم البخاري رحمهما الله تعالىٰ:

كرامة رد الله بصر ابنها بعد ذهابه. وكرامة التجائها إلىٰ ربها وتذللها له.

وكرامة رؤياها خليل الله إبراهيم في المنام فيها البشرىٰ بذلك الأمر.

ولئن دفعنا النور الذي لمسناه في سيرة والده إلىٰ القول: حقيق أن يكون لمثل هذا الوالد ابن هذا شأنه، فإن هذه الكرامات تدفعنا إلىٰ أن نكرر هذا القول بشأن والدته فنقول: حقيق أن يكون لمثل هذه الأم ابن هذا شأنه، وجديرة هي أن تكون أم البخاري.

قامت أم البخاري بدورها ودور أبيه معًا في تربيته وتعليمه، فربته وأجادت

تربيته، وعلمته، فأحسنت تعليمه، ولما رأت أنه جمع العلم الذي عند علماء بلده رحلت به إلىٰ مكة ليزداد من بحاره وليغرف من أنهاره، فرحلت به وهو في سن السادسة عشر إلىٰ مكة، وأدت فريضة الحج، معها البخاري وأخوه، ثم رجعت هي وأخوه، وتركاه يطلب العلم.

ولننصت إلىٰ جوابه لما سأله محمد بن أبي حاتم، عن ذلك فقال: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب، فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين، أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلىٰ الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلىٰ الأصل، فدخل، فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت، فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدىٰ عشرة سنة، فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلىٰ مكة، فلما حججت رجع أخي بها، وتخلفت في طلب الحديث، فلما طعنت في ثماني عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وذلك أيام عبيد الله بن موسىٰ، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر النبي ﷺ في الليالي المقمرة، وقل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب[(١)].

وقد طاف البخاري الدنيا، يسمع حديث رسول الله ﷺ ويجمعه، فرحل إلىٰ المدينة والعراق والشام ومرو ونيسابور وبلخ والري ومصر، حتىٰ أخذ عن ألف وثمانين شيخا، كتب عنهم العلم، ليس فيهم إلا صاحب حديث وسنة[(٢)].

(١) انظر: «تاريخ بغداد» (٢/٧)، ومقدمة الفتح (٤٧٨- ٤٧٩)، و«طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٢/٢١٧).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٣٩٥)، و«فتح الباري» (١/ ٤٤).

ونعود إلىٰ التذكير بأن الذي أعان البخاري علىٰ ذلك التطواف في البلدان هو المال الذي تركه له أبوه رحمه الله، وإذا تأملنا في حياة والدٍ توفي وترك لزوجه أولادا ومالا، فأخذت الأم المال، فوجهت أبناءها لطلب العلم، وأنفقت عليهم هذا المال، تعينهم به، ولا تبخل عليهم، فاتصفت بخصلة فريدة من خصال الخير والكمال، فما كنزت المال، ولا خافت عليه الضياع في طريق العلم، ولا قالت – كشأن كثيرات اليوم –: أخزنه لهم، ينفعهم إذا كبروا، أو لا أتعجل إنفاقه إلىٰ حين، بل أخرجته مباشرة، تنفق به علىٰ ولدها في بلده، ولا تكتفي بهذا بل تحمله إلىٰ مكة أصل العلم وأم العلماء ليتعلم العلم بلسان أهله، وتنفق في سبيل ذلك نفقات كثيرة، ثم لا تعترض علىٰ رحلات البخاري إلىٰ سائر البلدان ليلم بأصول العلم وفروعه، وكيف لا؟ وهي التي شجعته وفي هذا الطريق رعته وتؤمل من وراء سعيه فيه أملها كله، وقد كان فتحقق أملها، ولعله فاجأها عظم ذلك إن كانت بقيت في الحياة إلىٰ ذلك الحين، أو لعلها أدركت تباشيره، التي ظهرت مبكرة كفلق الصبح.

إن هذا الصنيع لا تحسنه ولا تقوىٰ عليه كل أم، إلا أم مخلصة مخلصة، ألهمها الله طريقها.

إن قراءة سيرة أم البخاري علىٰ قصرها الشديد، تضع أيادينا علىٰ أسس مهمة في تخريج العلماء والعظماء، ألا وهي صلاح الأم والتزامها وقربها من ربها، فصلاح الأبوين له أثر عظيم علىٰ ذريتهما، وهو سبب صلاحهم، وقد قال الله عن علة حفظه مال اليتيمَين: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢].

ومن تلك الأسس أيضًا: استعمال الأم سلاح الدعاء في أن يقضي الله لها حاجتها في ابنها، بأن يعينها علىٰ ما تريده وتطلبه، ويوفقها إلىٰ سلوك الطريقة المثلىٰ للوصول إليه، فما أقصر الطريق وأسهلها علىٰ من كان الله معينه، وما أطولها وأشقها علىٰ من لم يكن كذلك، فالأمر كما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتىٰ ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

فعلىٰ الأم التي تروم غاية عليا في مسيرة تربيتها وتعليمها لأبنائها ألا تغفل عن التضرع والإلحاح إلىٰ الله بسؤاله التوفيق والسداد.

وقصة ذهاب بصر البخاري ورده عليه بسبب دعاء أمه وتضرعها إلىٰ الله هي خير دليل علىٰ كرامة تلك الأم، ودليل علىٰ أقوىٰ أسلحتها في سبيل الوصول إلىٰ غايتها.

ويبقىٰ فيما ذكرنا بعض العبر أشير إليها إشارات سريعة، لعل الأم المؤمنة تستفيد منها في تربيتها العملية لولدها:

مر بنا ذكر البخاري خبر الكتَّاب الذي حفظ فيه القرآن، وألهم فيه حب السنة والحديث، وكُتَّاب الأمس هي حلقات التحفيظ اليوم، فلا تتعالي علىٰ هذه المؤسسة العريقة، ولا تتكبري عليها، ولتجعلي لولدك من بركتها نصيبًا، فهي أقدم وأبرك وأعظم مؤسسة عنيت بهذا الأمر، ونفع الله بها، لله در أقوام لا يزالون يقومون عليها، وآخرين يقيمون أولادهم بها ويجددون والثقة معها.

كان البخاري حين ختم القرآن ابن سبع، وحين اهتم بالسنة وذاكرها كان دون عشر، وحين رحل في طلب العلم خارج بلده –بل خارج قطره– كان ابن ست عشرة، وقد وردت الأخبار بأنه دون أول كتبه وهو بعد ذلك بسنتين، أي وهو ابن ثمانية عشر، فانظروا إلىٰ اهتمامات الشبان وإنجازاتهم، فصموا آذانكم عن سماع اللغو الذي يتردد عليها من مثل: لا تكبتوا الأولاد، ولا تضيعوا مواهبهم في الحفظ فقط، وهذه الشنشنات الغريبة التي تعود الناس علىٰ ترديدها دون فهم أو وعي، إن إنتاج البخاري في هذه السن يعكف عليه اليوم باحثون ذوي أسنان ضعفها تقريبًا، ليحصلوا الدرجات العلمية الكبيرة في جزء من مائة جزء من هذه المؤلفات!.

ثم طاف البلاد: العراق والشام ومصر، وأخذ عن (١٠٨٠) شيخا، وظهر نبوغه، وتميز علىٰ أقرانه، وطار اسمه في الآفاق، وألف المؤلفات الرائعة، وعلىٰ رأسها كتابه: (الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، المعروف بصحيح البخاري، الذي حظي بثناء ما بعده ثناء، فقيل عنه:

إنه أصح كتاب بعد كتاب الله.

وله كتاب الأدب المفرد (وصف بالمفرد تمييزا له عن كتاب الأدب، ضمن الصحيح)، الذي لا يستغني عنه مسلم يريد أن يتأدب بآداب الإسلام.

وكان إلىٰ جانب مواهبه العلمية موهوبًا في الرمي: يقول وراقه محمد بن أبي حاتم: كان -محمد بن إسماعيل- يركب إلىٰ الرمي كثيرًا، فما أعلم أني رأيته في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، بل كان يصيب في كل ذلك، ولا يُسبق.

وما زال يترقىٰ في مراتب العلم، ومنازل العمل، ومدارك الفضل، حتىٰ أصبح وجوده زينة للأمة، وأيامه مواسم للخير، تحتفل بقدومه البلاد، ويتمنىٰ رؤيته العلماء.

وكان في الناس من يود أن يهبه من عمره، فهذا العالم الجليل يحيىٰ بن جعفر البيكندي يقول: لو قدرت أن أزيد من عمري في عمر محمد بن إسماعيل لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموت محمد بن إسماعيل فيه ذهاب العلم.

وفي ليلة عيد الفطر سنة (٢٥٦هـ) توفي الإمام البخاري رحمه الله.

رحم الله الإمام محمد بن إسماعيل، ورحم أباه الذي لم يطعمه إلا حلالاً، ورحم أمَّه التي ربت فأحسنت التربية، وكانت السبب في عودة النور إلىٰ بصر محمد، فملأ الدنيا نورًا وبصيرة[1].

❁❁❁

---

(١) انظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ص٤٧٧ـ٤٩٤.

(١١)
أم ربيعة الرأي
رحمهما الله تعالى

ومن هؤلاء الأمهات الجليلات: أم ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي مولاهم أبو عثمان المدني، المعروف بـ: ربيعة الرأي، شيخ الإمام مالك.

وقد خرج زوجها فروخ في البعوث إلىٰ خراسان أيام بني أمية، وترك ربيعة حملا في بطنها، لتقوم هي علىٰ تنشئته وتربيته وتعليمه، وقد ترك عندها ثلاثين ألف دينارًا، ولما رجع بعد سبع وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلىٰ حلقة وافرة، فأتاها، فوقف عليها، وإذا فيها مالك، والحسن، وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه).

فرجع إلىٰ منزله، وقال لزوجته وأم ولده: لقد رأيت ولدك علىٰ حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها، فقالت له: فأيهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟، فقال: لا -والله- بل هذا. فقالت: أنفقت المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيعتيه[١].

مات رحمه الله سنة (١٣٦) هجرية علىٰ الصحيح[٢].

❁❁❁

(١) انظر: «وفيات الأعيان»، لابن خلكان (٢ / ٢٨٩-٢٩٠).
(٢) انظر: «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٢٠)، و«التعديل والتجريح» للباجي (٢/ ٥٧٣).

(١٢)
أم شيخ الإسلام ابن تيمية
رحمهما الله تعالى

احتل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العلوم الشرعية مكانة عظيمة سوغت - بحق - لعارفي قدره من الذين عاصروه أو جاؤوا بعده - تلقيبه بلقب (شيخ الإسلام)، وقد أورد ابن ناصر الدمشقي في كتابه: الرد الوافر؛ ترجمة لأكابر العلماء في عصر ابن تيمية وبعد عصره، ممن أطلقوا هذا اللقب عليه[(١)] .

ذلكم الإمام هو تقي الدين ابن تيمية، صاحب المواقف المشهودة، والرسائل المنضودة.

ومناقب ابن تيمية رحمه الله كثيرة، والنقول حولها موفورة، وشهرته -كما يقول الحافظ ابن رجب-: تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره[(٢)].

إن ذلك المجد الرفيع قد شاركت بقوة في تأسيسه أم شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمها الله وعظم مثوبتها، وإن لم تذكر لنا الكتب شيئًا كثيرًا عنها، فإن البعض المذكور يخبرنا عما لم يذكر، ومن ذلك: الرسائل التي تناوبت بينهما حينما كان في مصر، وهي في الشام، ومن ذلك أنه كتب إليها مرة رسالة يعتذر فيها عن إقامته بمصر؛ لأنه يرىٰ ذلك أمرًا ضروريا لتعليم الناس الدين، فقال رحمه الله:

من أحمد بن تيمية إلىٰ الوالدة السعيدة، أقر الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو علىٰ كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي علىٰ خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده

(١) انظر: «الرد الوافر علىٰ من زعم أن من سمىٰ ابن تيمية شيخ الإسلام كافر»، لابن ناصر الدين الدمشقي، ص٨٧.
(٢) انظر: «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٨٧).

ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم تسليمًا. كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد. وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لخدمة الدين، ولأمور ضرورية، متىٰ أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا -والله- مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم علىٰ باطن الأمور فإنكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم علىٰ الإقامة والاستيطان شهرًا واحدًا، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخير، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية. ومع هذا، فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالىٰ، فلا يظن الظان أنَّا نؤثر علىٰ قربكم شيئًا من أمور الدنيا، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثَمَّ أمور كبار تهم الإسلام والمسلمين، نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب. والمطلوب كثرة الدعاء بالخير؛ فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيرًا كثيرًا، وعلىٰ سائر من في البيت من الكبار والصغار، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحدًا واحدًا، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم(١).

ويظهر من الرسالة: أن والده الإمام عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية كان قد توفي رحمه الله، وهو ما تثبته التواريخ قبل ذلك بقريب من خمس وعشرين سنة.

ويظهر منها أيضًا: بِرُّ ابن تيمية البالغ بأمه، وحبه الجم لها، وإجلاله وإكباره العظيمين لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٨).

ويظهر منها أيضًا: حسن ظن ابن تيمية بأمه، وثقته بدقيق فهمها وإخلاص قصدها وإرادتها، حتىٰ ليخبر في يقين أنها لا تختار غير مراد الشرع المحبب إلىٰ الرب سبحانه، ويعتمد في بلوغ غرضه علىٰ تقريره وتأكيده، لا طلبه والحث عليه.

ويظهر منها أيضًا: أن رسالة ابن تيمية إلىٰ أمه - وإن رقت عبارتها وسهلت لغتها - قد اشتملت علىٰ خطاب علمي، يخبر فيه ابن تيمية أمه عن أمور علمية؛ فهو يتحدث إليها عن شؤون تتعلق بالدين، وأخرىٰ تتعلق بالدنيا، ويتحدث فيه عن الراجح وغيره، والمصلحة والمفسدة، والعام والخاص، ويذكر الشاهد والغائب، وأعمق من هذا لو أننا غصنا في تحليل رسالته، وهذا معناه أن أمه - رفع الله درجتها - كانت علىٰ وعي بهذه الاصطلاحات، ولم لا وهي بين هؤلاء العمالقة: ابن تيمية الأب والجد والحفيد، ومعهم جمع من أعمامه وإخوته كانوا يشكلون معهدا علميا لدراسة علوم الدين الحنيف في بيتهم؟ لله هم!

ردت عليه أمه برسالتها: واللهِ لمثل هذا ربيتك، ولخدمة الإسلام والمسلمين نذرتك، وعلىٰ شرائع الدين علمتك، ولا تظنن يا ولدي أن قربك مني أحب إلي من قربك من دينك وخدمتك للإسلام والمسلمين في شتىٰ الأمصار، بل يا ولدي إن غاية رضائي عليك لا يكون إلا بقدر ما تقدمه لدينك وللمسلمين، وإني يا ولدي لن أسألك غدا أمام الله عن بعدك عني، لأني أعلم أين، وفيم أنت، ولكن يا أحمد سأسألك أمام الله وأحاسبك إن قصرت في خدمة دين الله، وخدمة أتباعه من إخوانك المسلمين، رضي الله عنك، وأنار بالخير دربك، وسدد خطاك، وجمعني الله وإياك تحت ظل عرش الرحمن، يوم لا ظل إلا ظله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[(١)].

للهِ هذه الهمم التي تنجب لأجل غاية، وتربي علىٰ هدف، وتسلك السبيل القويم في مراحل الوصول، وتنتظر النصر والظفر حين تؤدي دورها ويحين وقت الوفاء لها، فتنتظر الثمرة الحلوة للجهد والمشقة والبذل الذي قدمته.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/٤٨).

وإن القلب لتقف دقاته أمام قول أم شيخ الإسلام له: وإني يا ولدي لن أسألك غدًا أمام الله عن بعدك عني؛ لأني أعلم أين وفيم أنت، ولكن يا أحمد سأسألك أمام الله وأحاسبك إن قصرت في خدمة دين الله وخدمة أتباعه من إخوانك المسلمين.

إن أم شيخ الإسلام لتخبره وتخبر العالمين من ورائه أنها ربته ليكون خادما لهذا الدين، ساعيا فيما يحقق له الصيانة والرفعة والغلبة والنصرة، وأنها قد أعدته لهذا حين أقامت حياته علىٰ أساس من شرائع الدين، فعلمته إياها، وأقامته في طريقها، ولهذا فإنها تنتظر اليوم منه إذا استطاع نفع الدين ألا يتردد عن تقديم نفعه علىٰ كل شيء، مهما تكن التضحيات ولو كانت قربه منها، فإن قربه منها وإن كان حبيبًا إلىٰ قلبها، لكن قربه من ربه ودينه أحب إليها، وخدمته للإسلام والمسلمين في شتىٰ الأمصار أقرب إلىٰ قلبها من أي شيء سواه، ولذلك فإنه لن يحصل غاية رضائها عليه إلا بذلك، ولن يكون ذلك الرضا منها عليه إلا بقدر ما يقدمه لدينه وللمسلمين، فذلك هو مقياس رضائها الذي ينبغي أن يراعيه وميزان العلاقة التي تربط بينهما، لا عاطفة الأمومة والبنوة ولا غيرهما.

إننا لو نظرنا إلىٰ الأنفس، لوجدنا أن سريرة الإنسان تورث صاحبها عزًّا بعزها وذلاًّ بذلها، فلا تحسبن بأن تلك الكلمات وليدة اللحظة، إنما هي ثمرة لسريرة نقية، عزيزة بالله، لم نر منها إلا الصورة الأخيرة.

ولعل في سيرة أم ابن تيمية هذه السيرة العملية القصيرة جدًّا من النفع ما لا تفي به المجلدات الضخمة النظرية، لتنبئنا عن عظم الجزاء الذي ينتظر المرابطات علىٰ ثغور التربية، وينبههن إلىٰ أهمية دورهن المهمل في تربية وتنشئة الأجيال.

رحم الله ابن تيمية وأمه، ورزقنا بمن يقوم بمهماتهما في الدين، والنهوض بأمة خير النبيين، آمين.

❁❁❁

(١٣)
أم الإمام العلامة ابن باز رحمهما الله

ولد سماحة الشيخ في مدينة الرياض، بتاريخ: ١٢/ ١٢/ ١٣٣٠هـ، بعد بلوغه الثالثة من عمره، توفي أبوه، فنشأ يتيما في كنف والدته الصالحة.

وحدَّث الشيخ محمد بن أحمد بن سعيد رحمه الله -وهو يكبر سماحة الشيخ قرابة عشر سنوات- أن الأولاد الصغار كانوا يبتعدون عنه في صغره ولا يخالطونه، فكانت أمه ترحمه، وتغسله في طست، وتعتني به، وتكثر الدعاء له جدًّا.

وهكذا كانت بداية سماحته في ظروف صعبة، وكان أخواه إبراهيم ومحمد يقومان بشؤون البيت ورعاية والدتهم الصالحة، التي دفعته وهو في حدود العاشرة لحفظ القرآن وطلب العلم الشرعي، فدخل كتاب الشيخ عبد الله بن ناصر بن مفيريج رحمه الله (١٢٦٧-١٣٥٠هـ)، وأتم الحفظ مبكرًا، واعتنت به والدته، وحرصت عليه، فكانت تنتظره حتىٰ يعود من المسجد، وتحثه علىٰ حضور الدروس، وقد حضر درسًا في يوم شديد المطر لم يحضره غيره!

وقد كانت الأم تشجعه علىٰ فعل الخير إلىٰ جانب ما طبع عليه من الأخلاق الطيبة والكرم والسخاء منذ صغره، فقد ذكر عنه أنه عندما بدأ في طلب العلم كان يحرص علىٰ مساعدة كل طالب يأتي جديدا إلىٰ الرياض بالجلوس معه ومؤانسته، ومساعدته في كل ما يحتاج؛ لأنه غريب، حتىٰ يبلغ به الأمر إلىٰ أن يأخذه معه إلىٰ منزله؛ ليتناول عنده الغداء أو العشاء، حيث يطلب من والدته أن تعطيه وجبته هو، وعندما تقول له أمه: ما عندنا غيرها. يرد عليها: هذا طالب علم ومحتاج وغريب، يجب أن نرغبه في العلم.

وقد أنست أمه هذا الكرم المتأصل في نفسه، فصارت تشجعه وتعينه بكل

ما يحتاجه طلاب العلم: من طعام يتشاركون فيه، أو خياطة لملابسهم وما يحتاجون إليه؛ لأن الغريب البعيد عن أهله يحتاج لبعض الأمور ذات الأثر في نفسه.

أورد المشرف علىٰ مكتب سماحته في كتابه (القول الوجيز) قوله: كان لوالدته رحمها الله فضل كبير في تربية سماحته، وكان لها من العناية التامة والحرص والدعاء له ما مكنه من التحصيل.

ولما بلغ سماحته السادسة عشرة أصيب بضعف في البصر، وأخذ يزداد تدريجيًّا، إلىٰ أن فقد البصر تمامًا مستهل سنة ١٣٥٠هـ، وحزنت والدته لذلك أشد الحزن.

حدث الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن باز، قال: حدثني الشيخ المعمر سعد بن عبد المحسن بن باز، قال: كان لوالدة الشيخ عبد العزيز جارة صالحة، ولما أصيبت عيناه شق ذلك علىٰ والدته، فقالت هذه الجارة الصالحة: لا تحزني، ولكن ادعي الله له بعد كف بصره أن يعوضه البصيرة، فدعت له، وأخذت تلح في الدعاء له.

فلعل دعاء هذه الوالدة الصالحة المشفقة استجيب في هذا الغلام اليتيم الضعيف، فصار عالم الأمة ومجدد العصر، فلا يعجزن أحد عن الدعاء.

وما زال الشيخ يذكر فضل أمه عليه كما في محاضراته، فذكر فضلها عليه، فكانت تدفعه للصلاة في المسجد رغم صغر سنه، وتنتظره عند الباب حتىٰ يعود فيذهب ليصلي، رغم البرد و الطين وانعدام الكهرباء حينها، ثم يحضر دروس العلماء المقامة في المسجد، حتىٰ إن شيخ الحلقة لا يجد سواه في بعض الأحيان، لأن أكثر المصلين قد انفضوا لبيوتهم بسبب البرد، فيقول: هل هناك أحد!؟، فيجيبه الشيخ عبد العزيز – وهو طفل صغير حينها- يقول: أنا عبد العزيز، فيرد عليه شيخ الحلقة: فيك البركة يا عبد العزيز، فيعطيه درس العقيدة.

وعندما سئل سماحته عن طفولته كيف كانت، قال: أما عن طفولتي فلا أتذكرها بالضبط، عدا تلك التي كنت حريصًا فيها علىٰ مجالسة أهل العلم، وقراءة

القرآن والاطلاع علىٰ ما يجب في علوم الدين.

توفي سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في عام (١٤٢٠) هجرية، وصلوا عليه في الحرم المكي، وحضر جنازته ما يقارب مليون شخص، فكانت جنازة مهيبة، حزنت الأمة جميعا علىٰ فراقه، فرحمه الله، وغفر له، وأعلىٰ قدره، وجزاه عن الأمة خيرًا، وجزىٰ أمه خير الجزاء[(١)].

❁❁❁

(١) انظر: «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله»، لمحمد الموسىٰ، ص٣٢.

ملحـــــق:

(١٤)

ست الركب: أخت الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمهما اللّه تعالى

كانت قارئة كاتبة، أعجوبة في الذكاء، أثنىٰ عليها الحافظ ابن حجر، وقال: وكانت أمي بعد أمي. وذكر شيوخها وإجازاتها من مكة ودمشق وبعلبك ومصر، وقال: تعلمتِ الخط، وحفظت الكثير من القرآن، وأكثرتْ من مطالعة الكتب، فمهرت في ذلك جدًّا، وكان لها أثر حسن عليه[(١)].

امرأة عاشت حياة فريدة من بدايتها إلىٰ نهايتها، حتىٰ في اسمها -ست الركب- عاشت (٢٨) عامًا فحسب، ومع ذلك استطاعت أن تصنع من شقيقها المعروف ابن حجر العسقلاني عالمًا مشهورًا في تخصص الحديث النبوي.

إن تجربة ست الركب في صناعة شقيقها ملهمة ومحفزة لكل بنت تعتقد أنها لا تزال صغيرة أو غير مؤهلة، أو أن وقتها ضيق، أو أن أعباء المنزل أو متطلبات الوظيفة كثيرة ومسؤولية الحياة الزوجية والأطفال ثقيلة، فست الركب لم تكن ظروفها جيدة بالكلية، وإنما كانت لها مشاكلها ومشاغلها اليومية، ومع ذلك أصرت وصبرت وأدارت طاقتها ووقتها بذكاء، فلم تقصر في حق زوجها وأطفالها، ووجدت فائضا من الوقت والحنان والاهتمام تسبغه علىٰ أخيها الصغير: ابن حجر.

فمنذ البداية، وست الركب كانت مختلفة، وكان أخوها لا يزال في سنوات طفولته الأولىٰ، فقد رحل والدها وعمرها سبع سنين، وترك مكتبة منزلية فيها كتب قيمة، والكتب في الماضي وقبل اختراع آلات الطباعة كانت محدودة وثمينة، لأنها

(١) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة»، لابن حجر (١/ ٩٨).

تكتب بخط اليد، وكان الأمراء ونخبة المجتمع يتسابقون علىٰ شراءها، وبالتالي فإن والد ست الركب لم يترك مكتبة منزلية فحسب، وإنما ترك ثروة ضخمة، وكان لست الركب وهي البنت البكر والقرار قرارها أن تبيع هذه الكتب وتحصل علىٰ الثروة والغنىٰ، ولكنها اختارت أن تحافظ عليها وتستفيد منه ويستفيد أخوها منها.

إننا لسنا أمام أمينة مكتبة أو مدبرة منزلية حافظت علىٰ الكتب من الضياع أو التلف، ولو كان هذا إنجازها لكفىٰ، ولكنها كانت معلمة ابن حجر، وكان هذا يعد فتحًا لابن حجر الذي تتلمذ وتعلم تحت كنفها، يقول ابن حجر: كانت بي برة، رفيقة، محسنة، جزاها الله عني خيرًا، فلقد انتفعت بها وبأدبها مع صغر سنها[(١)].

ولما توفيت، رحمها الله تعالىٰ، تألم لفراقها ألمًا شديدًا، ورثاها بقصيدة، قال فيها:

بكيت علىٰ تلك الشمائل غالها ... كيف الثرىٰ بعد التنعم واللطف
بكيت علىٰ حلم وعلم وعفة ... يقارن مع عز الهدىٰ هزة الظرف
بكيت علىٰ الغصن الذي اجتث أصله ... ولم أجن من أزهاره ثمر القطف
فقدت بك الأهلين قربىٰ وألفة ... فأقسمت مالي بعد بعدك من إلف

❁❁❁

(١) انظر: «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»، للسخاوي (١/ ١١٤).

(١٥)
أم زوجة القاضي شريح
رحمهم الله

سيدٌ من سادات التابعين، وفقيهٌ من أبرز فقهائهم، عظيم القدر، وافر العلم، رفيع المنزلة، محوط من الجميع بالتجلة والتوقير والاحترام، وكان إلىٰ ذلك، أعلم الناس بالقضاء، ذا فطنة وفراسة وذكاء نادر، وعقل راجح، ورأي صائب، أدرك الجاهلية، ثم أسلم، وحسن إسلامه، وتفقه فبلغ الغاية أو جاوزها.

ورأىٰ فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ من صفات القاضي العادل، ما جعله يستقضيه، فولاه قضاء الكوفة، ومكث قاضيًا عليها خمسًا وسبعين سنة، لم يؤثر عنه في أثنائها أي ميل أو زيغ.

وبارك الله له في عمره ومد في حياته، حتىٰ جاوز المائة، ومات - رحمه الله - سنة سبع وثمانين للهجرة.

ذلكم هو القاضي الفاضل: شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم، وهو كِندي، وقد عرف الناس فيه من أصالة الرأي، وبعد النظر؛ ما جعلهم لا يصدرون عن أمر ذي بال إلا بعد مشورته، وكان إذا أشار بالرأي، فالقول ما قال، والصواب ما رأىٰ.

واستشاره صديقه العلامة الجليل القدر الكوفي التابعي أبو عمرو عامر بن شرحبيل، المعروف بالشعبي، استشاره حين هم بالزواج، فقال له: لا تعد نساء بني تميم، وعليك بهن؛ فإني رأيت لهن عقولا وأدبًا وعفة وحسن تبعل وطاعة.

وكان شريح قد أصهر في بني تميم، فقد ساق الله إليه زوجه علىٰ غير سابق معرفة.

وخبر ذلك أنه أقبل ذات يوم من جنازة وقت الظهيرة، وقد اشتد الحر،

وانتعل كل شيء ظله، ومر في طريقه بدار من دور بني تميم، وإذا هو بعجوز علىٰ باب دارها، وإلىٰ جانبها فتاة، فعدل عن الطريق، ومال نحو العجوز، وتعلل بطلب شربة ماء، وأغلب الظن أنه أراد أن يعلم شيئًا عن الفتاة.

ولكن العجوز تقول له: أي الشراب أحب إليك؟، قال: ما تيسر، فقالت العجوز: ويحك يا جارية، ائتيه بلبن؛ فإني أظن الرجل غريبًا.

فسأل: من تكون هذه الفتاة؟ قالت: هي زينب بنت حدير، من بني حنظلة، قال: أهي فارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة، قال: أتزوجينيها؟ قالت: إن كنت كفئًا لها.

وجاء اللبن، فشربه شريح، وانصرف مفكرًا إلىٰ داره، ليأخذ حظه من نوم القائلة، ولكن الفتاة تقع من قلبه، فامتنعت عليه القائلة، فنهض وصلىٰ الظهر، وارتدىٰ ثيابه، وقصد جماعة من العرب الأشراف، وأخذ بأيديهم، يبتغي يدها من عمها، واستقبلهم العم، وقال: ما شأنك أبا أمية؟ قلت: زينب ابنة أخيك، قال: ما بها عنك رغبة، ثم زوجنيها.

قال الشعبي : ذلك إليك الآن يا أبا أمية، فلتختر لي من نساء أصهارك بني تميم، من تراها صالحة، وأنا راض عما تفعل، فقال شريح: لئن كان في بني تميم من تكون فارغة وتصلح، فأنت من المحظوظين، وعلىٰ الله التكلان، ومنه التوفيق.

قال الشعبي: كلامك ينبئ عن حظوتك بزوجتك التميمية!، قال: هو ذاك، ولكن لا أخفي عنك، أني ندمت حين صارت في حبالي؛ لأني تعجلت، وذكرت كبرياء نساء بني تميم وغلظ قلوبهن، فقلت: تزوجت إلىٰ أغلظ العرب، وأجفاها، وراودتني نفسي أن أطلقها، ثم اعتزمت الدخول بها، فإن رأيت حسنًا وعلمت ما أحب، أمسكتها، وإلا فارقتها، وقد كان ندمي في غير محله.

فلو رأيتني يا شعبي، وقد أقبلت نساء بني تميم يحطن بها حتىٰ أدخلنها عليَّ، لرأيتَ ما يسر الخاطر، ثم قمت -عملاً بالسنة- فتوضأت وصليت ركعتين،

فقامت هي الأخرىٰ فتوضأت وصلت ركعتين.

ثم أقبلت جواريها فأخذن ثيابي وألبسنني ملحفة قد صبغت بالزعفران، فلما خلونا مددت يدي إليها، فقالت: علىٰ رِسلك، وكان مما قالت: إني امرأة غريبة عنك، لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأجتنبه، فإنه كان لك في قومك من تتزوجها، وكان لي من أتزوجه من قومي، ولكن إذا قضىٰ الله أمرًا كان مفعولاً، فاصنع ما أمرك الله به، إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان.

وقد أحوجتني بذلك - يا شعبي - إلىٰ القول، فقلت: إنك قد قلت كلامًا إن ثبت عليه، يكن ذلك حظًّا لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا، وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فاذكريها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

قالت: كيف محبتك لزيارة أصهارك؟، قلت: ما شاؤوا، وما أحب أن يملني أصهاري. قالت: فمَن تحب من جيرانك ومَن تكره؟، قلت: قوم فلان صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

وكانت واللهِ -يا شَعبي- أنعم ليلة بتها، وأقمت عندها ثلاثًا، ثم خرجت الىٰ مجلس القضاء، فكنت لا أرىٰ يومًا إلا هو أفضل من الذي قبله.

وأعجب من ذلك أن أمها لم تزرنا إلا علىٰ رأس الحول، حيث جئت من مجلس القضاء، ودخلت الدار، فإذا أنا بعجوز تأمر وتنهىٰ، فسلمت، فردت السلام، ثم أقبلتْ فقالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، وأوفق قرينة، لقد أدبتِ فأحسنتِ؛ فجزاك الله خيرًا. ثم قالت: يا أبا أمية، إن المرأة لا يرىٰ أسوأ حالاً منها إلا في حالتين: إذا ولدت غلامًا، أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب، فعليك بالسوط؛ فو الله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة، وكانت تأتيني علىٰ رأس كل حول، وتوصيني بهذه الوصية.

قال شريح: فلبثت معي عشرين سنة، لم أعب عليها شيئًا، وما غضبتُ عليها قط.

وكان لي جار من كندة؛ يقال له ميسرة بن عدي، أسمعه كل يوم يضرب زوجته ويؤذيها بلسانه، فقلت في ذلك:

رأيت رجالا يضربون نساءهم ... فشلت يميني حين أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به ... وما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... إذا طلعت لم تبد منهن كوكبا
وكل محب يمنح الود إلفه ... ويعذره يوما إذا هو أذنبا

قال الشعبي :وأنىٰ يكون لي بمثل هذه؟ إنها من النادرات! قال شريح: خار الله لك، ووفقك إلىٰ مثلها إن شاء الله تعالىٰ[1].

❁❁❁

هذا ما يسَّر الله جمعه، فله الحمد وله الشكر، لا أحصي ثناء عليه.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❁❁❁

(١) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٥/ ٨٧).

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
(١) أم أنس بن مالك، رضي الله عنهما.. ٩
(٢) أم الزبير بن العوام، رضي الله عنهما.. ١٩
(٣) أم عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما.. ٢٣
(٤) المجاهدة الصابرة أم عمارة، رضي الله عنها ٢٩
(٥) أم الشهداء الخنساء، رضي الله عنها.. ٣٧
(٦) أم الإمام مالك بن أنس، رحمهما الله تعالىٰ.. ٤١
(٧) أم الإمام الشافعي، رحمهما الله تعالىٰ.. ٥١
(٨) أم الإمام أحمد بن حنبل، رحمهما الله تعالىٰ ٥٧
(٩) أم سفيان الثوري، رحمهما الله تعالىٰ.. ٦٥
(١٠) أم الإمام البخاري، رحمهما الله تعالىٰ ٧١
(١١) أم ربيعة الرأي، رحمهما الله تعالىٰ.. ٧٩
(١٢) أم شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهما الله تعالىٰ ٨١
(١٣) أم العلامة ابن باز، رحمهما الله.. ٨٥
ملحق: ٨٩
(١٤) ست الركب: أخت الإمام ابن حجر العسقلاني، رحمهما الله تعالىٰ.. ٨٩
(١٥) أم زوجة القاضي شريح، رحمهم الله ٩١
فهرس الموضوعات ٩٥

النسخة الإلكترونية

امسح بالجوال

9 786030 405107